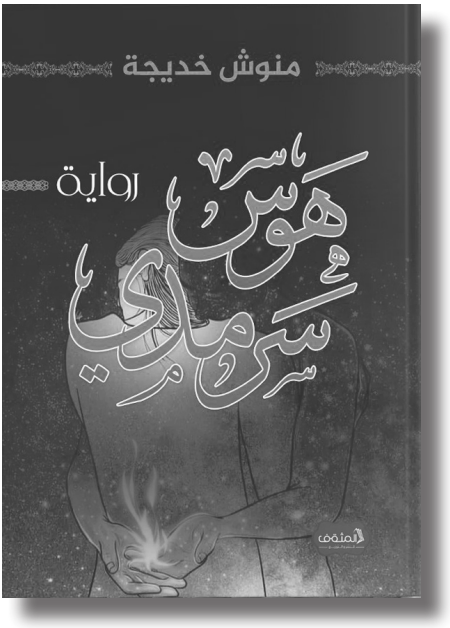
منوش خديجة
رواية
هوس سرمدي

الطبعة الأولى 1444 هـ - 2022 م
(ISBN) : 978-9931-13-683- 5
الإيداع القانوني: 2022/09

اسم العمـــل: هوس سرمدي
اسم المؤلـــف (ة): منوش خديجة
التدقيق اللغوي: منوش جيهان
تصميم الغلاف: زكرياء رقـــاب
إخـــــراج: أحمد منصـــوري
المدير العـــام / سميرة منصوري

الناشر/ دار المثقف للنشر الجزائر
صفحة الدار على موقع فيسبـــوك:
/https://www.facebook.com/elmothakaf
الموقع الإلكترونـــي: www.elmmothakef.com
هاتـف / فاكس 79 47 80 033 / 79 90 21 0773
واتساب/86 73 49 0675
مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف للنشر والتوزيع

جميـع حقـوق النشـر الورقـي و الإلكترونـي والمرئـي والمسـموع محفوظـة للمؤلـف وغيـر مسـموح بتـداول هـذا الكتـاب بالقـص أو النسـخ أو التعديـل إلا بـإذن مـن الناشـر.
©

منوش خديجة

رواية

هوس سرمدي

المثقف
للنشر والتوزيع

•مقدّمـــــــة:

كلمات مبعثرة أصبحت جملا مدوّنة في سطور، أفكار غير مرتّبة مشتّتة بين السّؤال والمتاهة نقاط غير مكتملة أقلامي جفّت من حبر باهت، حروف ناقصة، مشاعر مائلة تأبى الرّحيل هي الأخرى، أسأل من حين إلى آخر كيف أرتّب فواصل الكلمات حتى في قصيدتي تخلى عنّي الوزن والقافية باتت وحيدة الواو والياء من أين أبدأ وماذا أجمع؟ هل أغلق باب الزاوية؟ أم أمضي قدما، ليس لدي جدارة تحمل جفافا خطوط قلمي بعدما كانت طوفانا يجري بين كتاب لم ينتهِ.

الاقتباس 1 كلّما نظرت إلى عيونه ثمة شيء بارد يضيء في صدري، شيء يشبه السّلام ولكنّه أرق من ذلك...
الاقتباس 2 كل تلك الانكسارات والخدوش التي خلفتها وراءك هي التي صنعتني اليوم، أمّا أنت لست إلا حصاد للحظات التي ظننتها لن تمر ومرت..

* * *

الإهـــداء

إلى ذلك الهجين جافي المشاعر فظ الطّباع الذي لم يبادلني الشّعور يوما، عشت معه جميع أنواع الوجع إلا السّعادة، كأنّه يقول لي لن أمنحكِ إيّاها تلك المشاعر، بكيت كثيرا بوجوده وبكيت كثيرا بغيابه لكنّه أهداني كتابا كلّه مشاعر وهوس وجعلني أقوى من أن يشوّهني عابر أو تسحقني الظروف،

جبر الله كسر قلبي بكسر قلبك كسرا لا يجبر.

والإهداء إلى الشّمس أبي، والقمر أمّي دمتم لي سندا ومسندا وعزة، والنّجوم إخوتي الذي زيّنوا سمائي ومنحوني النّور في العتمة وشهدوا كل ماحدث في الكواليس جيهان آية إلياس ودورصاف.

إلى نور يضيء عتمتي عندما تطفئني الأيام والظروف إلى غيمة تضلني وتسقني دون رغبة بردي جميليها، إلى الأياد التي تمد لي العون عندما أتعثّر وتدفعني لمقامة كل هذه الأشياء التي تستدعي السقوط كل من عزالدين المغريش ومنوش جيهان

شيماء أخضر وهبة وعبد العزيز مسعودة، لم يكونوا إخوة بدم لكن كانوا إخوة بالمواقف.

وأخيرا الإهـــــــداء

إلى أولئك الذي كسروا أجنحتي عندما حاولت التّحليق سأخبركم بشيء بسيط

ها أنا أطير وأنتم لازلتم في حفرة غروركم

سلاما على كل من مرّ على كتابي ولمسته نسمات حروفي ويجد نفسه في سطوري ربما أنا لم أجد نفسي فيهم..

*** * ***

الفصل الأوّل

وحين أردت أن أخرج من الظّلمات إلى النّور جاء كهيبة إلاهية وأعاد للروح أنفاسها، كان بلسما للجروح والأمل بعد الألم والرّاحة بعد التعب، بكلمة منه يستطيع ترتيب كل ما تشتّت بداخلي

وبجنون ربيعي وشهر أزاري أصبح معجزة أزهرت قلبي من جديد لأثبت أن ذبول خرافة عن شخص أشعل حرب دارت بين قلبي محبة وعقلي، عن شخص ليس كسائر الرجال كأنّه من العالم الآخر، عن شخص وقفت كلماتي تحييه كأنّه جندي وسط حرب صلب الانتصار منها، تحية له

لا أعرف كيف تزعزع قلبي رغم ثباته أمام الكثير لم يكن مثاليا كاملا

لكن أعرف أنّه كان رجلا لا يوصف بالكلمات..

كان حبّه بمثابة ضوء ينير ظلمتي

ليؤكّد لي أن الظّلمة لا تصمد طويلا، لا أعلم فما كان مراد الله في أن أصادفه، لكنّه كان النبض في كل ثانية والشريان والضّلع الثابت..

نظرت إليه بملايين الطّرق وفي كل طريقة أحببته بشكل مختلف.

كالسّاعة كل العقارب تشير إليه، حاضر في أزقة الذّاكرة، بعيد ويسكن القلب لا تلتمس الأيادي كأن الوقت يعاكسنا ولكن التمست المشاعر بشكل فضيع، ويتجوّل في الدّم بين القطرة والأخرى لقد امتلك الرّوح..

اقتربنا من بعض بطريقة لا يستوعبها المتيمون، كأن القدر كان حليفي ليس أمامي ومع ذلك هو كل ماتراه عيناي، أتجاهل الجميع حين يكون معي، فالنّاس للنّاس وهو لي وحدي..

هو طفلي في الحب وأبي عند الضعف، وكل العالم عند شعوري بالوحدة، وموطني عندما تخونني كل الأوطان، أحببته ليس لجماله اليوسفي بل لأنه الأعمق، لأنه الوحيد الذي أريد أن أحمله في الركن الأيسر، كل الحب الذي يزول ليس بحب، إنّما الحب الثابت الذي لا يغيّر مذهبه مهما عصفت الرّياح جعلني أمتلك الحظ الأول بكسبه..

حتى وإن غاب عن حدود قارتي الخامسة سأتعرّف عليه بقلبي، عشقته بلا نهاية كقصة عشق لن يكرّرها الزّمن، بعمر لا ينتهي وبشعور لا ينطفئ وبقلب لا تزوره الطمأنينة إلا في حالة قربه.

أحببته رغم أنف كل معارض، الحب غريب يحوّل الشخص من العدم إلى الوجود كيف يعيد شعور الرّغبة في الحياة.

الحب أشبه بإعادة الرّوح لجسد ميت رغم أنّه جثّة هامدة.

هذا الحب جعلني أتحرّر من القيود.

لا شيء يقيّدني ولا قضبان تسجنني في زواياها المظلمة.

عشنا سنوات كالطيور المهاجرة الجريحة ترمرم بعضها البعض وتحاول بناء عش يحويها ويحتويها ويحفظ تفاصيلها.

كل منّا وضع بصمته الخاصة في قلب الآخر وكأنّه جزئي الضّائع ووجدته، واكتملنا ببعض لم أرغب في الوصول إلى أيّ وجهة مدام كان هو طريقي ودليلي.

طالما كان هو النّعيم والجحيم

هو الوجع والألـــــم

هو النّور والظـــــلام

هو الحياة والمـــوت

هو المأمن والأمـــان

حين أحببته أول مرة كانت كل الأشياء من حولي تشعرني بالغرابة، أحببته وأنا لم أتأمل بتفاصيل عينيه، لم ألمس حتى طرف يديه، أحببته وأنا لا أعرف شيئا عن طوله وظاهره، أحببت فكره، أحببته من الداخل أولا.

عشقته باندفاع لأنّي شعرت بالطمأنينة برفقته وهذا يكفيني.

لكن كان للقدر رأي آخر ووجهة معاكسة، وطبق عليّ أقذر لعبة من ألعابه.

لم أكن أعلم أن الحياة لا تعطي فرصا مجانية، وأنّي سأدفع الثمن باهضا ولو بعد حين.

وفي إحدى الأيّام المتشابهة إذ بي أتلقى صفعة الخيانة دون سابق إنذار، أعادتني للخلف آلاف المرّات.

كأنّي أبدأ من الصّفر لأتفاجأ أنّي مؤقّتة لملء وسدّ الفراغات، وضحية لحب فاشل خلّف وراءه جروحا لا تشفى إلا بتضحية وتدمير شخص آخر، وفي الأخير تكتشف أنّك لست إلا نتيجة لمشاعر كاذبة أتت عن طريق إعجاب بسبب عين أبصرت فاشتهت جمال المنظر، فتلاعبت

بالقلب وغشّت العقل، أعمته كي لا يبصر للحقيقة، فالعقل يتبع المنطق أمّا القلب يشتهي ما تشتهيه الرّوح فلا تجعل أحدا وتينا لروحك، فإن انقطع مرة فقدت في ذات اللحظة والزّمان، فلا تتعوّد على أحد ففي البدايات كلّهم قيس وهي للجميع

أمّا الثّبات للمخلصين

لكن خدعني كخدعة مخذر للمريض في منتصف العملية.

وإن سألوني عن الحب أين ذهب؟ سأقول لهم تركني في وقت من الغضب،

ماكنت أنساه لكنّه ذهب، ظننت أنّه وهبني قلبه لكنّي كنت الوحيدة التي تهب، أخبرني أنّه لن يحيا من غيري لكنّه كذب، ورغم ذلك لازلت أحبّه وياله من عجب،

فحبي له طغا على عقلي وغلب، يا ليتني أستطيع نسيانه وأنتهي من هذا التعب.

ولأنّي فتاة بسيطة في مهد الحب لازلت بريئة لا أدري أن الحياة في قسوتها جريئة ولم أدرك أنّه كان يكذب في كل حقيقة، لم أدرك أني أخطو في دربه إلى حافة هاوية عميقة هوت بي إلى متاهة مظلمة لاتحمل أنوارا مضيئة..

نعم أغرقني

وببرودة كان يرى قلبي يغرق ولم يهتم إذا رآني غريقة، ولم يشعر بحسرة أنّه أشعل في داخلي حريقا، فذاك الذي يجري في داخله لم يكن قلبا بل دناءة، تجري منه مجرى الماء يبلّل بها بعد كل ضحية ريقه لم يراعِ الله فيا، ولم يكن رجلا بما يكفي بل كان ذكرا كل أفعاله خطيئة..

وكأن داخلي انطفأ بشكل مخيف لم أدرك قط بأن المرء يمكن أن يختنق بفرط ألم الحب إلى اليوم الذي أردت فيه البكاء فما وجدت لوجعي دموعا، كانت كل الصور المعلّقة في سقف غرفتي تخبرني بأن حياتي ستتوقّف عند تلك الليلة، لا دموع تفي بالغرض ولا ندم على ما مضى، لا بكاء ولا صراخ الأمر أكبر من ذلك أقصى ما كنت أملك لأوقف هذا الألم هو أن أتعايش مع ذكرياته، أتعلمون ما الذي يجعل هذه الأحاديث أكثر وجعا؟ هو أنّها جميعها بسبب شخص واحد ناديته يوما النّبض لكنّه أوقف أنفاسي ومزّق شرياني.

جمعت كل أحاديثه بعد الفراق كان الأمر أشبه بانعدام شعور مؤلم كما لو أنّي ابتلعت كل الألم دفعة واحدة خبّأته بقلبي ونمت كأن حربا نشبت بقلبي دمّرت مشارقه ومغاربه ستنتهي بتدميري لا محالة ولا نجاة منها.

ماذا أفعل بكل هذا الحب الذي بقي في قلبي؟ الآن لا أحد يتعافى من جروح الحب بشكل كلّي، ستظل تلك النّدبات مدفونة في أعماق القلب ولكنّها ستحيا في كل موقف مشابه كأنّها تعاد من جديد لتذكّرك بتلك الخيبات.

لم يكن ألمه عاديا

كان متواصلا لم يعطِني فرصة.

للاستراحة كان دائما يزيد من عذاب قلبي، كنت دائمة التّفكير به كأن أنين قلبي يصدح بالأرجاء، لكن لم يسمعه أحد لم يحس به أحد، كان يعذّبني ويزيد احتراقي، تراودني تلك الأيام اللعينة كل ليلة فأصم ساقي دون إرادة منّي وأنا أحتضن ذكرياته لعلّي أحسّ بالأمان، وأغمض عيناي بقوّة وأنا أرفض تفاصيله المميتة لعلّها تفارقني لعلّها تترك لي مجالا ليوم وللتفكير كي أمضي قدما وأغلق نافذة الخيبة لكن لا لا فائدة من إغلاقي النّافذة والمشهد مازال يدور في ذهني..

خيبة وراء خيبة منه تلهمها الخذلان من أقرب شخص إلى قلبي ومن ثم حطام يجول في أرجاء قلبي الهش صفعة منه وضربة غدر منه وأصبحت كالجدران تصلّبت مشاعري كإنسان أو كلا ردة فعلي لا تشبه إنسان الحي أنا جثّة الآن فإنّني جسد بلا روح يعيش بينكم، جمعينا خلقنا لنكون محطّات في قلوب البعض يأتون إلينا ويعيشون معنا ويثيرون فينا فوضى تأنيس ويعتاد دون حساب للخيبة فتأتي الخيبة كفاجعة فلا يعود القلب يوما كما كان ولا نعود نحن، يرحلون تاركين ظلالهم تلاحقنا.

يقال أن الذكرى هي لعنة أبدية تلاحقنا، فكم نحن ملاحقون بكم وبوعودكم الكاذبة لاننسى لم تكن هذه الحياة التي تمنيتها في مخيّلتي يوما لكنّني مجبرة على تجاوز كل هذا الخراب.

البعد لم يؤلمني ولكن المؤلم في الأمر أن يبتعد عنك شخص أفصحت له يوما بأن البعد هو الشّيء الوحيد الذي يكسرك

لكنّه يفعل، لم تكن الفكرة أنّي لا أستطيع العيش دونه، ولكن كان وجوده يكمل ذلك الجزء من حياتي، إن الحب مثل داء السرطان يأتي من دون سابق إنذار ويدمّرك في اليقضة ثم تدرك متأخّرا بعد نوبة أو كومة مشاعر ودوّامة عشق ودموع بعد منتصف ليل ورسائل وذكريات، والوجع المكتوب بحبر الدّماء وغيرة مدفونة في الأعماق وصبر لا حدود له، بأن كل الأشياء الثمينة قد استنزفتها في حب لا يستحق، في علاقة لا يمكن حتى النظر فيها ومع الشّخص الخطأ.

دعوني الليلة أخبركم أمرا منذ متى أصبح الحب ينسينا أوجاعا خلفها هو بنفسه؟

سأجيبكم سيأتي

حينها وتغيب الإحساس بالأمان إن حضر لا يغيب مهما حدث وستدرك متأخّرا بأن الإحساس بالأمان أهم وأعظم شأن من الحب ذاته.

مازلت أتعافى من الخذلان الكثير الذي خلّفه وراءه، وأشفى من كل كلمة سامة أصابتني فأفقدتني ثقتي بنفسي وأفقدتني الثقة في الحب، مازلت أخوض حربا لاتنتهي، أنهزم وأنهزم وأسقط وأنهار ثم أنهض وأعود أقوى، ثم أضعف وأنسحب، هكذا حدثت الأشياء في الكواليس بينما هو لا يعرف عنها شيئا، مازلت أتعافى وأتجاوز تفاصيله ورائحته وملامحه.

لكن لاشيء يضاهي رائحته ولو اعتصرت فرنسا بأكملها في قنينة عطر.

وفي الأخير أعود إلى نفسي التي أنكهتها أنفرد بها ومعها أعود لأرتشف أكواب الصّمت، أعود كعودة الفلاح إلى بيته ليلا متعبا ومرهقا تستنزفني السّاعات وتأبى الأيام أن تتجاوزني، تجف قطرات الأمل داخلي كامرأة أرملة توفى أبناؤها الثلاثة في حادث مفجع، الأحاديث مقرفة في مسمعي، العلاقات والحب والصّداقة والنّاس والمحادثات والرّسائل، يعلو صدى هذه الضجة في رأسي، متى سيتوقّف الألم يا فتاة؟
في اليوم الأخير سينتهي حين تتوقّف نبضات القلب.

أنا من يعلم معنى الموت في الحياة ،عند غياب وجه أدمنته دون أن أفقد الوعي، كيف توقّفت مشاعر ي دون توقّف النبض، واختفت الألوان دون أن يختفي بصري، وتلاشت روائحه دون أن ينفذ عطره، وحده الغائب عن قلبي يعيد رسم خارطة حياتي بأقلام البعد والوجع، وينحت تفاصيلها بمرارة الفراغ، لن يفهم فأنا أتحدّث عن أمر قطعت آلاف الأميال تفكيرا ولم يمشِ فيه خطوة واحدة ،لن يشعر فأنا أشرح شعور جال في قلبي كل ليلة ملايين المرات ولم يطرق قلبي ليلة، ليس ذنبه بل هي المسافة الهائلة بين الكلمة والتجربة، أصبح كل شيء بلا عطر ولا مذاق بلا لون، يقود بصيرتي فارغة لا تترك أثرا في أرواحي سبع بعد أن تناثرت كالفتات خاوية من كل شيء، فارغة بلا رسائل أمضي عليها عند كل ظهيرة، فنجان قهوة ثم يليه فنجان آخر ونعاس لازال يداعبني لن أستطيع مقاومته ولن أستطيع استدال روموشي بعد أن سقطت شعرة شعرة.

أين ذلك الحب

من كل هذا ربّما اختطف أو حرق كجثة هندية الأصل من يدري،

فقدت كل الأماكن رونقها من بعدك، وذبلت كل الورود التي زرعتها في روحي، أصبح كل شيء باهتا جافا من بعدك حتى أنا اليوم أدركت لن أنسى، وبأن كل ما حدث أمام عيني لا زال يعيد نفسه مهما حاولت إغلاقها وادّعيت الكره تّجاهك، لم أنجح في طمر مشاعري فلا ذاكرتي عطبت ولا ذاكرة محيت، ولم أتمكن يوما من انتهاء مامرت به ، أعرف أن تلك المسافات تفصلني عنك والأحلام التي أنتظرها على عتبة الانتظار للأمنيات الطويلة التي تنتهي بعينيك لا شيء قادر على أن ينتشلك منّي، سأمسك بيدك لا تتركني للرّيح كأنّي ابتديت معك ومعك أنتهي.

فلا مهرب منك إلا إليك والخيبة عظيمة يا أيّتها العاشقة شققنا طرق الألم بأحذية رخيصة الثّمن، وحل للذكرى ظل عالق في القلوب، تمضي بنا الأيام كصاعقة تدور بنا وتلف لتعيدنا إلى عين الإعصار داخل روح أتعبتها كوارث الحياة المتقلبة، انقلبت قوارب الأحلام في بحور الواقع ودفنت الصياد في أعماق خيبته مخذولا والخيبة عظيمة والدّموع أضاعت طريقها، طريق الهطول، والشّمعة احتضنت خيط الهلاك، أصاب اليأس مدينتنا في عز شبابها وتقدّم بها نحو أبواب الشّيخوخة العقل قبل الجسد ، أمّا نحن سنلف علينا رداء الهدوء القبور ونمضي مع جنود الحياة بحثا عن الشّهداء في حرب الخيبة العظيمة .

الفصل الثّاني

ماذا لو قلت لك

أنّني لم أحب بعدك وأنّني كرهت الحب والمحبّين، أنّي لم أعد أتلهف لأشياء كنت أرقص فرحا فور رؤيتها، أنّني أصبحت غير مبالية بما يحدث حولي، وأنّي فقدت شغفي في هذه الحياة وأنّي أشتاق لك وأرسل رسائل لنفسي وأظنّك تقرأها، وأن بقايا عطرك لا تزال عالقة بملابسي منذ آخر عناق بيننا قبل أن ترحل.

ماذا لو قلت لك أنّي شعرت بالتيه وبالضّعف والحيرة، لم أكن أعلم من أين أبدأ كيف أتوقّف ولا كيف أكمل، هل ألملم شتات عقلي ؟ أم أداوي روحي التي تنزف؟ أم أفكر لماذا حدث كل هذا ؟ هل كنت سيئة أم أقل من التي اخترتها؟ لكنّني لم أمسه بسوء لماذا كل هذا؟

ماذا لو قلت لك

أنّي مشيت بهدوء وأنا أجر قدماي وقد مال جذعي إلى اليسار من فرط ثقل روحي عليا منذ الأزل وقد تكدّست همومي وغصاتي، لم أعد أقوى على عبور تلك اللحظة تساءلت ما الذي يستطيع إطفاء نار خيبتي ههه غبية..

ماذا لو قلت

لازلت أمشي بوجهي الشّاحب وكدمات جسمي الرّمادية شديدة السّواد التي تبدو عليها كل ا لأثار الدّامية التي بقلبي، عينايا كانت رثّة لكنّني لم أكن أبالي بل كنت أمسح عنها تلكال قطرات التي تمطر من جفوني

الضاهرة لتبدو برّاقة تماما كالابتسامة المزيّفة التي أرسمها على محياي عندما يسألني أحدهم عن حالي، شعرت أن كل شيء بات ثقيلا على رأسي وقدماي وكتفاي وحتى جفوني وكحل عيناي وأحمر شفاه، حتى لمحة سجادة فشعرت برغبة جامحة في الصلاة إنّها خلاصي الوحيد.

كيف أخبرك أن عينيّ ممتلئة وإنّي أراك في كل شيء السّند.
وإنّك في ظلام تتحوّل إلى نور، وفي ضياع تبدو كدليل، وإذا مالت بي الهموم أقامت جدار سعادتي ، ماذا لو أخبرتك
أنّك موجود في ذاكرتي وترافق عثرات قلبي وتساندني حيث ألوم العالم أنت موجود بداخلي فكيف للمرء أن يلقي بنفسه وأنت نفسي.
ماذا لو أخبرتك
أنّني أدمنت عناقك ولقاءك رغم أنّه لا يحدث إلا في مخيّلتي، تراودني دائما تلك الرّغبة في لمس وجهك وعندما أرفع يدي يختفي طيفك لكنك لن تلين ولن تحن وها أنا لازلت أكمل في خيالي قصة أعدمها الواقع.
ماذا لو أخبرتك
أنّي أتجوّل وأضيع في كياني فتفاجئني عاصفة الأسئلة المحيّرة وتنثر ماتبقى من رماد قلبي المحترق ويضيع فتات قلبي وسط الفراغ وفجأة يصيح عقلي مهلا دعيني أجمع شتاتي فإن ضاع شتاتي أنا أيضا فمن يدير كياني، سمعت الكرامة هذا الصراخ فأتت مسرعة وانحنت تحادثه،

لن أسمح بانهيار هذا الكيان، لن أسمح بانهيار هذا الكيان، وأخذال صوت يرتفع شيئا فشيئا إلى أن هدأت العاصفة فخرجت من كياني مسرعة تاركة كرامتي وعقلي في حيرة، أين القلب المحترق؟ قال العقل جمعت شتاتي ولكن كيف أتي برماد مندثر؟

كيف أخبرك

أن كل الطرق لم تكن تؤدي إليك، أنا من كان يعكف الطريق عنوة ليعود إليك ، يحن قلبي إليك وحين يصل إلى بابك مشتاق يتذكّر قسوة ردودك فيعود أدراجه خائبا نادما

أعتذر

أنا أعتذر ياطيري

لم يخذلني وداعك

لقد خذلني ظرف الوداع نفسه

كان أقل من حجم محبّتي لك، كان باهتا لا أستحقه، كان بيننا الكثير من الكلام لأقوله أو أكتبه لكن الأقدار مجدّدا تضعني في المواجهة مع المسافات والظّروف والزّمن، أن أقف عند اللحظة التي كان عليّ فيها أن أمضي سمعت صوت عقلي الذي يحميني لكنّه لم يعطِني الحياة التي أحبّها، لكن لك في القلب بحر من اللهفة هاجت أعماقه عشقا فإن كان الحديث معك ارتواء فكيف يكون اللقاء كأنّي ابتديت بك.

أعتذر

ظننتك أماني فأذيتني، أقسمت على أنّك لن تتركني فتمسّكت بالجميع وأفلت يدي ودافعت عن الجميع إلا عنّي، راهنت علي أنك ستحارب العالم لأجلي فحاربتني لأجل العالم، وثقت بك وغدرتني، آمنت بك وكفرت بي. كنت كلّما اقتربت بك شبرا ابتعدت عنّي ذراعا، وكلّما بنيت آمالي فيك هدمت كل شيء وجعلته خرابا، أحدثت في قلبي جرحا عميقا كعمق بئر كولا، وغرست في سنان السهام التي نزعتها منك، تلك السهام التي طعنتك بها حبّك الأول فوالله ماعدت قادرة على التعبير أكثر من هذا، فكلّما تذكّرت من كان كلّي هو نفسه الذي خيّب ظنّي وخذلني وعقد لساني فأعجز عن البوح لكوني لا أستطيع.

أعتذر حتى ولو كنت لم أخطئ

أعتذر حتى إن لم يكن الاعتذار يعنيك ولك

أعتذر لنفسي حتى يفنى الاعتذار.

لم نفترق

لم أمزّق صورك

لم أنسَ ذكرياتك

ها أنا أعانقك كل يوم وأتذكّر ملامحك جيّدا، أشتم رائحتك ولا أراك، نبرة صوتك في مسامعي ،أراك في أحلامي وأرسم طيفك ،خيالك بقربي وأكتب لك رسائل يومية ، أنام وأنا أحتضنك وأردّد اسمك وأتذكّر حديثنا وأبتسم ربما نكسر الحواجز ونلتقي فقد نتجاوز الخلافات ونعود ربما نلتقي في طريق عابر ،لم أحرّرك منّي ولم أتحرّر منك، عن أي فراق تتحدّث أيّها الأبله

تعال نعود هذه الليلة فقط لي حكايات كثيرة

لم أعتد أن أحكيها لغيرك، دعني أخبرك عمّا وقع وما سيقع، دعني أرتمي بحضنك كما كان الحال قبل الفراق، دعني أحكي دون قيد أو شرط ثم تغلبني حرقتي فتختلط دموعي بكلامي ولا أستطيع الحديث،

دعنا نحكي هذي الليلة فقط.

دعنا نسهر حتى الفجر ونحكي في أي شيء، أحكي وأثرثر كعادتي وتنظر إلي لتمنعني من الحديث كما هي عادتك،

دعنا نعود الليلة فقط.

وفي الصباح دعنا لا نحكي لا ترسل إلي صباح الخير ولا أخلق منها شجارا ، تمر من أمامك صوري فتتجاهلها ويمر من أمامي قلبي فأدعه يتبعك ولا أوقفه دعنا نعود ليلة وبعدها دعنا نرحل دون التفات حتى.

كان لدي مئة كلام منمق كنت سأخبرك به فور رؤيتك، ستون عتابا كنت سأسقيك به عندما نلتقي، عشرات الصفعات كانت ستزور خدّك لتشعر بألم رحيلك الذي خلفته داخلي، قلب واحد كنت سأضعه بين كفيك بعد ذلك ففي مئة حديث ناقصا لأنك لم تأتِ وبقيت العتابات ستون دون صاحب والعشر صفعات كذلك، لم يحز في نفسي غير قلبي الذي ظل ينتظر بلهفة مرور أدوار العتاب والحديث والصفعات ليعود إليك، لا أنت أتيت ولا قلبي كف عن الانتظار.

وها أنا اليوم أدوس بساطك غريبا بعدما كانت هذه الروح منزلي،

لا تتمسّكوا بمن يفلت أيديكم، ولا تتشبّثوا بمن يريد الرحيل، ولا تستثنوا من يسعى لكم ولا تصدّقوا من تسبقه الأعذار دائما.

اهربوا من فقراء المشاعر وعديمي الضمير والمسؤولية ، أعلنوا الحرب على الجبناء وناكري الود والمعاقين عاطفيا، وفرّوا على أنفسكم عناء الاستماع للإسطوانات الرّخيصة والمستهلكة، تعلّموا إعادة ترتيب الأشخاص دائما من خلال أفعالهم فقط.

حيث من اعتاد أن يصبح وهو في الصفوف الأولى قد يمسي وهو في الصّف الأخير.

عندما أحببتك تركت كل العالم خلفي واخترت أن أكون بقربك رغم كل شيء أنت لا تعلم كم مرة كان يتوجّب على أن أصلح قلبي بعد الخراب الذي حل من جراحك لكنّني أحاول. جاهدة ألا ينكسر قلبي وتسقط منه،

إنّني لا أخاف على قلبي بقدر خوفي أن أفقدك ربما تكون قصتنا مختلفة جدا حد الغرابة أحببتها وأحبتني لكن أنت لم تحبنا معا.

لم نعد نتحدّث كالسابق ومع ذلك يجب أن تفهم أنّك أكثر شخص أتحدّث معه رغم غيابه وأخبره عن كل ما يحدث معي.

لاتقلق أنا اليوم أقل حزنا، وغدا سيكون حزني أقل، وبعد الغد سيقل، لاشيء يبقى على حاله، أنت أكثر من ظننت أنّه سيبقى معي لكنّه لم يبقَ، ومن جهلي أسميتك وطني ونسيت أن الأوطان تسلب.

لا يفقد الإنسان نفسه حين يفقد أحدهم بالمعنى الحرفي بل إنّه يفقد سعادته، قدرته على الضّحك أو البكاء يفقد السّكينة والإنس ولو أحيط بأهل الأرض أجمع، فلا شيء يمكن أن يعوّضه عمّن فقده فيهيء له أنّه فقد نفسه في حين أنّه فقد كل ما يجعله يشعر أنّه يستطيع أن يكون نفسه دون أي شفقة .

عندما أتذكّر كيف أحببتك أبتسم، كان حبا طفوليا، أحببت حبي لك حتى وإن لم تكن تبادلني نفس المشاعر بقيت أحبك أحب كلماتك أحب أقوالك وأعذارك الكاذبة، كان حبا مليئا بالنية.

رأيت كم هو جميل ترك الكرامة على جهة وأن تتبع قلبك وتعبّر عن مشاعرك دون تفكير ما سوف يرد ألا أتألّم ولا أخجل بحبّي في كل مرّة اشتقت إليه حدّثته دون تفكير فيما سوف يقوله بل أفكر في أنا وبقلبي ومشاعري، ورأيت كم هو بشع ترك الكرامة من أجل شخص كم أنّه

سوف يستغلك ولن يدرك الشيء القيم الذي تتركه من أجله، كان حبّا مميّزا لم أندم يوما عليه.

لا بأس كنت درسا وتعلّمته رغما عنّي حتى أعيش بسلام من ضوضاء وهمك التي كانت في كلّ الأرجاء التي أمكث فيها، لابأس على قوّة الدرس قد تعلّمت منه أن أحب نفسي أولا قبل أي شيء، تعلّمت أن أعطي لمن يعطي ولا أندم على عطائي له، تعلّمت أن الفراق وارد ذات يوم وألا يكون محالا،

أنت كالخنجر المسموم تدب شكا في صدري وحبي لك هو اليقين المشحون بالريبة أمّا الحقيقة سكين تقطع الأكاذيب التي تعصر قلبي.

رغم كل هذا الحب الذي كنّا نعيشه، رغم كل الوعود بالثبات كنت أعرف أنّني سأمضي في طريق لوحدي وسأجيب على كل الأسئلة وحدي، كنت أعرف أنّك ستفلت يدي وقلبي معا ومع ذلك لم أفرط في لحظة حب واحدة ،لم أكن أريد شيئا كهذا، أردت فقط حبا أبديا ومشاعر صادقة، بداخلي كومة من المشاعر تراودني من كل صوب لكنّها تأبى أن تتنفس وتتركني، في لحظة بائسة حملت اليراع حتى أفرغ جعبتي وجدت نفسي أسلك طريقا غير طريقي لا هو من هوايتي ولا أنا أدرك إتقانه بالمرة، ما كان يغتصب أفكاري البارحة بعد منتصف الليل ويمنعني من النّوم هاهو يتوارى عنّي في ساعات انتظارك والآن تشبث بالأوراق المهترئة للماضي.

لا يخلف إلا ندم فقرّرت الرّحيل عنه والإفراط في حبّي لنفسي، قرّرتأن أحفر قبور بعض الأحياء وأدفن حبّه المسموم عنّي ولأنّي عرفت الحب أرفع من السؤال بلماذا؟ وكيف؟ ومتى؟ والذي يوقظ فرحة قلبك تسقط الحقيقة عليك كهطول المطر من السّماء وتنهض فيال ليل على كابوس فزع تئن فيه مثل مريض أوشك حفر قبره، كل هذا لعنة مريضة تستحق سحق تحت أقدام جرأة.

هل تتذكّر عندما وقفت عيني في عينيك ذلك اليوم لقد نسيت لحظتها من أكون ونسيت أين أنا، لحظتها وكأنّه توقّف رقّاص السّاعة عن العمل، كم كنت أتمنى أن أعانقك بشدّة وأخبرك أنّني أشتاق لك حتى وإن كنت بقربي، وإنّي أهبك السّعادة حتى لو كانت على حسابي، وإنّني لسنوات لم أتوقّف عن حبّك ولو للحظة، ليتك سألتني ولو لمرة لماذا أنت مهم لدي لهذه الدرجة؟ وقتها لكنت أخبرتك دون تردد أو أنّك جعلتني أشعر أنّك مهتم بكل ما أفعله لأجلك، يومها أمسكت يدك تمنّيت لو لم تفلتها ونسيت كل شيء لأخبرتك

صدّقني لم أتعمد

حبك فحبك هو من تعمدني

لا أريد أن يحتلك أحد ولا يستولي عليك أحد على أي جزء منك، لا أريد أن تطأك قدم أجنبية ولا تلمسك يد غريبة، لا أريد لوطني أن يحتل بأي طريقة كانت، لا أريدك يوما أن تغلق الباب ولا أن تغير العنوان، أنا الوحيدة التي يحق لها التجول في بساتينك، الوحيدة التي يحق لها الغوص فيك

أنت أنا وأنا كلي فيك، أنت النور الذي ينير عتمتي، حبيبي حبي روحي منقذي عمري أملي وكل الدفء والحب، أحبك ياموطن زهرة توليب.

* * *

الفصل الثّالث

كلّما أقطع وعودا على نسيانك تعود أنت وتقطعها بكل هدوء بكل عفوية، لم أستطع نسيان شيئ وكم هذا صعب علي، صعب لدرجة أنّه يختفي فدائما أشعر بشيء يشدّني إليك كلّما أردت الابتعاد دائما ما أفشل في نسيانك وتجاهلك رغم مافعلته ببرودك وعدم مبالاتك وتجاهلك المستمر وعدم إحساسك باهتمامي وبحبي وبقربي، أعلم أنّك مخطئ لكنّك طفولتي وذكرياتي وشبابي، آه كم أنا متأسّفة بحق نفسي وبحق قلبي رغم ذلك لم أستطع تجاوزك أبدا مهما حاولت، جرّدت قلبي من كل إحساس لكن عندما أراك تراودني كل الأحاسيس.

يحدث أن نرمي أنفسنا في خانات الانتظار مترقبين بتلهف بوصلة الأمل ومقيّدين روحنا بكلبشات العجز والخوف كمجرم صدر عليه حكم الإعدام، يحدث أيضا أن نشك باستطاعتنا ولحظات الحب، وتموت شهيتنا للأحلام بسبب ذلات الفشل التي وقعنا فيها دون اكتراث للنتائج المخلفة بعدها، ربما ندفع ثمن العقاب كبير من أجل نشوة تمر بلمح البصر، يحدث أن نشتهي الحب واللقاء في لحظة رغم هروبه منّا سهل التعلّق بك.

لكن ما أصعب التخلص من لعنة سيطرتك، ألقيت بتعويذتك على قلبي فأسرته هل لي يا ترى خلاص منك؟؟

أحببتك كما لم يحبك أحد، عشقتك حد الهلوسة، كنت كالحلم الواقعي لم أستطع كتمان صرخة روحي التي تنادي بك تبحث عن قربك وتذوب في نظرة عيونك، تجاهلت صوت عقلي الذي يرفضك داخلي غضضت نظري عن عيوبك، فأنا عمياء الروح فقط أنت من تسرّبت في صدري كالهواء وكنت لي المتنفس والنفس، ظننت أنني اعتدتك فقط لكنت عزوتي حتى استسلمت لسيطرتك واندثرت أنا تحت أنفاس حبك، ببساطة أنت بداخلي أكثر ممّا أنا به، كنت أسرق النظرات كي فقط ألمحك ،كنت أبتسم سرا لأن اسمك مر علي، أفكّر فيك عندما أرى عذاب العاشقين، أتذكرك عندما أرى هيام المحبّين ببساطة كنت أتخيّلني معك عندما تلفظ كلمة حب أو حبيبين يزورني طيفك فأذوب عشقا وتلمع عيناي حبا بالله عليك لا تعني لك حالتي المتقلبة شيئا..

رفقا بقلبي الذي اختار أن يحبك وأن يجعل من نفسه وطنا لك، لم أرغمك على البقاء بل حجزت لك أول تذكرة للرّحيل والآن لا أطلب منك العودة كل ما أريده هو تقرأ ربما سيهمّك أن تعرف أخبار موطنك الأصلي الذي اخترت هجرته رغم ما منحته لك من حب واهتمام لكنّك اخترت الاغتراب وها أنت جالس في بيتك الجديد أمام نافذة تطل على موطنك الجديد ، تشاهد الأخبار على شاشة هاتفك وتصدم بالخبر الآتي..

الوطن المدعو قلبي يتعرّض للقصف من جميع الجهات بعد أن تخلّى عنه ملكه وكل جيشه، يتعرّض للخذلان من العابرين والرّغبة في الاستعمار تجتاح كل المارين، قلبي توقّفت فيه عقاربال ساعة عند منتصفال ليل وترفض أن تتزحزح مرة أخرى ،السّماء مظلمة والأرض قاحلة والبحر هائج إلا قليل الهيجان، زلزال قوي أصاب المكان، مشاعر متضاربة تعم الأجواء بين أمل العودة واليأس، بين الاستسلام والترقب، بينال لهفة والنّدم، بين العتاب والموسات قلبي سينتظرك العمر كلّه وعند عودتك سيعاقبك على خيانتك بالطّرد خارج الوطن إلى

حينما أسمع اسمه تتخربط أصابع يدي وينقلب لي المشي وأشعر بشيء داخل عقلي يقول لي اسقطي أرضا، وتتسارع نبضاتي وتتكاثر نهتات تخرج من أعماق جسدي، ما هذه الحالة التي وصلت إليها؟ أصبحت حبيبة الليل ومؤنسة الوسادة وعشيقة الهدوء وأصبحت أعيش الخيال أكثر من الواقع، حياتي مملوؤة بالملل والاكتئاب، أصرخ في منتصف الليالي كي أسمع أنّني فقط هل أنا على حق أنا هي التي تخطّت كل الصّعاب وعجزت أن تتخطى عشق المراهقة لكن ليس منال سهل أن يكون مع شخص يمثل أنّه أفنى حياته لأجلك ويرحل بعدها دون إصدار أي صوت ماهذا العقاب؟

ماذا فعلت أتمنى أن تنطوي هذه الصّفحات بل أن يمزّق هذا الكتاب لينتهي هذا العذاب، لم أكن أعلم أنّك ستصبح امتحانا وتأخذ نقاطا وتترك الحال بلا أحوال، أتمنى أن أرجع النقاط لمكانها وينتهي هذا الهراء ليرتاح قلبي وترجع أنفاسي وأنسى أوجاعي. ولن أتجاوز أقداري وأترك أمري لمن اختارني في هذه الحياة

لماذا هو؟

لأنّه لن يكون لي مهما أردت فقط لأنّني أنتظر منه خبرا يغيّر حياتي للأحسن لأنّه روح أضيفت إلى روحي، ومرّت السنين وبقي الأجمل والأقرب إلى قلبي.

لماذا هو؟

لأنّني أراه بعيون أربعة، أراه شخصا يستحقني ولا أستحقه ويستحيل أن أستحقه فقط الآن مسافاتنا بعيدة، لأنّه الشّخص الذي يراودني تفكيري به كلّما قرأت كلمة حب أو سمعتها أو أحسست بها، لا أدري إذا كان حبا أم هوسا أو حلما علي الاستيقاظ منه عاجلا أم عاجلا.

لماذا هو؟

لأنّه يأتي طيفه من حيث لا أدري وألمحه من تلقاء نفسي وفي لحظات يتبخر من أمامي.

لماذا هو؟

لأن بسمة عيونه تلوح في حياتي شفقا وغسقا وتأبى الرّحيل حتى في الأحلام وشمسه تخلد فقط في أعين الجميع عدا عيني فهي تتوهج كشمعة لايفنى فتيلها.

لماذا هو؟

صوته يخرس كل مسامع الآلام وكأنّه لحن عذب متناسق حروفه مع همسك الهادئ فيعمل كمخدر للغياب،

ستظل لحظة الوداع هي حبل المشنقة الذي لف حول عنقي لا هو قتلني ولا فكّ أسري، بل لجم الكلام وقيّد دموعي وجعل من روحي عاصية، أغطّي نفسي باللحاف والضّحكات وأكذوبة الاعتياد، أنهض في ليلي ضائعة كالطفل يصرخ منتظرا من ينقذه من غمام خوفه وتحتويه أمّه في صدرها وتضمّه. حبا وحنانا ممّا يفتح شهيته للحياة ثم تغيّم سحابه من اليقين بعودتك أو رحيلي لك.

كيف لا أحبك وقد طوعت أهوائي لإدمانك وتسربت بين حنايا الرّوح، حرضت النّفس ذات الخشوع وأغلقت بإحكام جميع منافذي.

كيف لا أعشقك يا طفلي؟

وقد جئتني بالحب اليقين بعدما فار تنور صبري أسرجت خيول شوقك وصافحت رغباتي أياملهم قلمي حيث اختار حروفي.

لا قد كسوتني حبا فازداد قلبي طمعا، كيف أحبه وهو الغائب عني والحاضر في قلبي، هو كلّي وكياني ومهجتي ومسيرتي، هو ذلك الحبيب في صفة الصّديق كنت أهرب إليه حيث يلقي الليل بضلاله، وتتهجم خيبات الحياة المتتابعة ،هو الروح التي كان لي منارة تتوهّج في عرض البحر.

لا أزال أنا وحروفي تائهون في بحرك، غارقون في عمقك ،مستسلمون لعاصفتك، نسير على شاطىء حزنك الذي تبلّل بالدموع ولا نزال نشبعك اهتماما وتشبعنا خذلانا، رغم كل ذلك لا زلنا نحبك إن وجودنا في البداية كان واجبا أمّا الآن فهو كرم منّا بحر ميت أنت كالحفرة العميقة في صحراء قاحلة نراك فيها بحر وماهذه المياه إلا من صنع سرابك، سيد الغرور أنت رغم ذلك أيقظتك من سباتك ،لا أعطيك حبا إنّي في حب نفسي ملمعة لا أراك ولا أسمع لسخافاتك ،أنا الشمس لا أدور حول كوكب معثم فالكواكب في حياتيليس لها معنى سوى أنّها تتعبني وإن اقتربت احترقت وإن ابتعدت تجمّدت أنت في جنبي الأيسر أسلوبك الذي لا أضيعه وكلماتك التي لا أنساها ذكرياتك التي لا تفارقني ولماستك التي تعذّبني، أنت في كل مكان فيّ، أنت الذي استوطنتني، أنت الاحتلال الوحيد الذي ترحّب به أعناقي، أنت سماء مضلمة وأنا نجمة وحيدة، سنلتقي وسيكون الأمر مبهرا وملقنا للغاية، مارأيك أن نعشق بعضنا

البعض سرا ونوهم العالم أنّنا أعداء، أنا بانتظار يوم أصحو فيه عند رقبتك بعيدا عن هاته الشّاشة اللعينة، كانت خططي أعظم من اللجوء فيك، كنت أريد احتلالك والاستيطان عليك، أعلم أنّي أسوء منك كثيرا لكن ما أريد قوله هو أنّي أحبك دائما ، علّق هذه الرّسالة في رأسك كلوحة على جدرانك لا تنسى ذلك أنت الذي تعيشه داخلي ياصغيري..
أنت بين شحوبي وضيائي..
أنت بين سعادتي وتعاستي، بين أمنياتي وأحلامي المحطّمة لأشلاء، بين ماضٍ ممزوج بعبق الأمل وحاضر شوّهته الآلام، بين هفواتي وعقلانيتي أنت تقف بين نفسي ونفسي، تارة أحلّق كحمامة بأجنحة الفرح وتارة تهوى بي حسراتي لقاع مظلم، أما آن لقلبك أن يحب أو لا يفعل، أنت تحب شريانه بوضوح مريح أو لا تفعل، أما آن لقلبك أن يفسد أشيائي بمنتصفه الممل،
أيكفيك عذابي ها قد وصلت لغايتك

أهديك من عمري ونبضي عمرا.
ولايفارقني طيفك للحنين أبدا باقيا أنا هنا
أعانق نبضك وأقبل أنفاسك، أجول في ذكرياتك أتسلل إلى أحلامك أمنحك الحب وأهبك الأمان

فأراك على كل سطر، تراودني أحلامي فآتي إليك فيتسابق شوقي حنيني أكتب فيك الحروف وأشتد فيزيد فيك هدياني، يكتب هوسي أملا فأختار كيف أصف شوقي لروحك شغفا،

أعاتب طيفك إن لم يزرني لعلّ الطيف أوعى للعتاب، ويبلغك عليّ بأن الشوق أفقدني صوابي،

مازال صدى صوتك يمتزج في أوردتي ووقع أقدامك. محفورة في أذني، ولازلت أتقن فن تخبئتك بين سطوري والحروف الأبجدية

خلسة أن تمضي بها أيضا وتصبح ترابا لحبر كان يكتب كل مرة بلهفة البدايات، يكاد الصّمت يأكلني في غيبتك كما تأكل النّار الحطب، وأتسارع مع ساعات عمري المتبقية لألحق بك وأذوب باشتياقي بين ذراعيك لعلّي رويت عطش قلبي منك.

فأنا ياسيّدي فتاة لا تهجر الأوطان مرة وإنّي حلمت بكوابيس أني لا أستطيع أن ألقاك. أطفأت أعقاب اللهفة بي فلم أكن بشوق المكالمة الأولى كأني لم أشعر يوما قبل النزعة الأخيرة سمعت تنهيدات قلبك فدفنت قلقي وقلبي وصدق إحساسي، صوتك البارد بشهقة الفزع ورعشات جسدي كأن حبّك يحتضر بداخلي فلم يعد للقلب سلطة علينا لنجتمع معه ولا نجوم في سمائنا لقد تناوب الجميع على الرّحيل وكان دورك فإذا بي فزعت من النّوم وأنا أردّد ذكرك والقلب لك يحنو، وهل ينسى المتيم بالعشق من رباه تلك الأنامل يحييني لمسها فما بالك يا ابني

نظرات عيونك الخضراء ما أهوى مدينة أسطورية وتروي قصّتها وكم عشقت ما أراه، نسيمك سلب عقلي فكيف تفسير هذا الكابوس ومعناه أنت هوسي وعشقي وأجمل ما رأت عيني فكيف لي ألا ألقاك فبكيت من شوقي لك وإلى متى ستأخذ منّي أحلامي إليك كأنّها عند الرحمان فعنده الودائع لا تضيع وجبر الله غصة افتقادي لك وحزن الأيام دونك، ورمرم الله قلبي الذي ملأه البعد شقوقا.

ها أنا أمر من نفس طريقنا المعتاد.

لكن هذه المرة وحدي أنظر يمينا ويسارا لعلّي ألتقطك، أرى في كل عابر لذلك الطريق ملامحك أتذكر نظراتك التي لا تفارقني، أعيد نسج كلامك ويعاد في مخيّلتي لكن بصوتك أنت أقوم بتصرّفاتك التي كنت دوما أنتقذها وأنا كارهة لها، لكن هذه المرة مشتاقة لها شريط ذكرياتنا في هذا الطريق لايزال يبث هنا وهناك في الأمام وفي الخلف أتّكئ على الحائط الذي تعوّدنا على الاستناد عليه ونحن نشارك أطراف الحديث وأسأله بخفت لمَ غيّرته هذه الحياة ألم تكن شاهدا على ميثاق حبّي الغليظ الذي جمعني به، لمَ شاءت الحياة أن تشتّتنا، لأي سبب ليعترف ويقول أنا شاهد أقسم أن أقول الحق، أنا كنت أقول أنّكما لن تفترقا إلى ما بعد الموت كنت لا أغضب منكما عند الاستناد عليا بالعكس تماما كنت أحيا بحيائي حبكما الصّادق ، طالما لمحت بريقا متوهّجا في قرة عينكما

وإخلاصا لا يطفئه أحد، وكنت أنتظر أن تأتوني رفقة أولادكما لأحكي لهم عن الحبيبين الأزليين اللذين ضحّا بالغالي والنّفيس ليكونا مع بعض ويكونا عبرة لعصافير الحب، وكنت سأجعل روحي الطريق يعترف هو الآخر لكم فسندي لكما كان فداء لحبكما، فما الذي وقع حتى أصبح كل واحد منكما يأتيني وحده ويتحسر على الأيام التي جمعتكما بي ليسمعها الجدار المنكب هو الآخر أنا في أيامي الأخيرة ولم يبقَ لي وسأهدم لأبقى مجرّد ذكرى في مخيّلة من وقفوا أو استندوا بي فقد هرمت ولم أعد صالح لأي شيء

وآخر قول لي كان

لن يدوم الهم ياحلوة المحيا

ولا يظل الحزن في عينيك يحيا

ولنا في الخيال حياة

الفصل الرابع

اخترت طريق الحب

طريق ليس بإمكاني التراجع عنه

لا يمكنني أن أقف في المنتصف الذي أبعدني عن كل شيء من حولي، المنتصف الذي لم ينصفني يوما ينضج قلبي كحبات الرمان بالسه،ر شغوفة لرسم ملامح الحب على رمال قدري لأسميه غنوة ناعمة تحتضر الحروف بين شفتي البريئتين على إثم يلوث كلمات كتاباتي بكل ساعات الهيام أقسم أني أنتظر

فأنا امرأة تملك من العمر أعمارا من العزف على أوتار الدهر

مشيت في طريقي دون النظر إلى الخلف دون ندم أو حسرة، ركضت خلف الحب الذي وجدت فيه الحرية من خلاله أصبحت كطائر بلا جناحين، كطائر مسجون في سجن الضياع في سجن العتاب أعاتب نفسي وسنين عمري ضاعت هل من مجيب يجيبني عقلي قائلا:

أنت السبب في ذلك، أنت سبب خرابي، أنت سبب انتكاسي، أنت لم ترحمني من لعنة الهوس أين أنا ؟ أين أحلامي؟ وأين أجد نفسي؟ أين أنا من بين كل هذا الخراب الذي بداخلي؟ فكل جزء مني يعاقبني.

العقل شاك والقلب جاف ثم المتاهة في أرواحنا لا في الطريق لا تقلق سيظل حبك في دمي لا يختفي بين الضلوع، ولا يمس قلبي الذي يوما عشقك حد الهلوسة لم يزل بالشوق ينبض دائما وكأن بي من فرط أشواقي، ها أنا هنا حين يخونك الشوارع والطرق ،حين تفقد القدرةعلى فهم الأشياء من حولك وتعد وبلا وجهة وأحباب هاك كلي واتّكئ كلّما

تقدم العمر أحببتك أكثر وكلما ابتعدت تعلقت بك أكثر وعفوية حبك مؤبد لا ينتهي، وسأخبرك للمرة العشرين أن وجهك عالق في ذاكرتي، إنني كلما رأيت شخصا أخذتني رغبتي وبدأت أعد ماينقصه ليكون أنت ولا أخجل من هذا الاعتراف بالحب الذي لا يجعلك فخورا ومحبا لا بنعمة قلبك ولون عينك براقتين ليس حبا

هل تعلم

أن الكتابة عنك تبدو استئصالا للكلمات المتورمة في قلبي، تبدو فانية محروقة وغليظة جدا، لكني عاشقة لسردها وللضياع بين حروفها رغم أني أبدو ثملة إلا أن عشقي لخمر وصفك لا يضاهي أي شيء كل شيء..

لا أعلم ما أشعر به عند رؤيتي لأحد يتحدّث معك

أحدهم قريب منك أشعر بشيء يتآكل داخلي، عندما تبتسم لأحدهم تتشابه أفكارك معهم، تؤلمني كثيرا أثناء ذكر اسم غيري من فمك، حين رؤيتي لك تبتسم وأنا لست السبب فيها ، أشعر بنيران تحرق قلبي أثناء الجلوس بجانب رفاقك يستحوذ أحدهم على تفكيرك بغيري، يهتز كياني مجرد تذكري بأنّك تلتقي بأشخاص غيري، تنظر لشخص مار بجانبك يلقي السّلام عليك وتبتسم لهذا وتتحدث مع ذاك حين تقع عينك على أخرى أغار ويهتز كياني ويتحطّم كبريائي عند فكرة إن اقترن اسم امرأة أخرى باسمك ذرة هواء التي تلامس وجهك، صمت والدتك عن عودتك

إذا أحبك فؤاد غير فؤادي فلن أستطيع منع عباراتي أي من ذلك أقسم لك أنّني أغار عليك أعلم فهي حمقاء غيرتي.

أخبرت طبيبي عنك

وصفتك تفصيلا دون أن أغفل عن شيء، وضعت أمامه صورتنا وأخبرته كم أنني أحبك وكيف أنني لم أتوقف عن حبكو لو لثانية

أجلسني بجواره وحدّثته عنك، وكل مرة أزوره فيها أخبرني للمرة الألف بأن الخوف من الحب لن يفيدني بشيء ظل يمسك صورتنا بين يديه يتأملها بشيء من الانبهار

كيف يعقل أن تكون ذات الوجه الشاحب الواقفة أمامه

هي نفسها ذات الوجه البشوش التي في الصورة

طلب مني أن آتي إليه في المرة القادمة معك أو حتى أن أعطيه رقمك، كنت على وشك تسليم أمري له

لولا أن تبادرت إلى ذهني آخر ماقلته

نعم هي

على حق وأنا معها منذ سنوات

وأحبها أخذت هاتفي من بين يديه تأملت صورتنا مجددا ثم ودعت طبيبي قائلة:

تحدثنا اليوم كثيرا

دعنا نؤجل حديثنا لحين أن أنسى، ليختم الجلسة بجملة لا نسيان، المخاوف ياخديجة

لا نسيان للأحبة، فكان ردّي ربما الحب ليس للجميع

أتيت

نعم أتيت

أنت هنا أين أنت؟ أنا لا أراك يا للعجب أنت في قلبي إنّني أشعر بك لكنّي لا أراك، إني أتمزق شوقا لك لكني لا أراك، كم هي طويلة هذه المسافات لكنك لست بعيدا عنّي، وجودك في روحي يغنيني عن الجميع دقدقة نعم إنها دقدقة قلب رجعت عنه سماع اسم محبها لا بل عشيقها، يا للهول بل نبض روحها، إنّها مستلقية

أتعلمون نبض قلبي كيف هو، إنّه غير عادي عند القرب منه تبدأ الانعكاس وعند البعد يبدأ بالخفقان، النبض ضعف النبض نعم إنّها روحنا المرتبطة، لم نعلم كيف ولماذا؟ ما نعلمه أنّنا روح واحدة، عشقته أصابني جنون حبه، أكرس حياتي له هو فقط جعل قلبي ينبض من جديد، لم أكن أريد الحب لكنّه أرغبني فيه

إنّه غير منطقي غير طريقي أنار مصباحي لروحي نبض قلبي، كم الحياة رائعة في قرب من نحب، كم هي ضيقة وحزينة عند مغادرة من نحب، الزمن طويل لكنه قصير عند قضائه مع من نحب، أرهقني الشوق

يا عشقي أرهقتني بعدك عني لابأس فروحك في قلبي وصوتك منبهي اليومي فلا تبتعد لأنك تخلع روحي من جسدي يغفو العالم بأسره وحبك حيلاينام.

وماذا سيحدث لو نظرت خلفي غير أنّني سأصاب بالموت في قلبي، وسواد الحياة في عيني أنت لم تكتب لي وأنا لم أكتب لك لاتلُمني على عدم الالتفات إليك

وأنت تغادر حياتي تترك أطلال ماضي مازالت أنفاسه

ماثلة في صدري حاضرة، ينازعني الحنين إلى روايتنا التي أسدل الستار عليها منذ مئة عام ربما هذه الكلمات باردة ولكن معناها كحرارة الجحيم عندما خرج قلبي جعلته ينزف حتى الرمق الأخير كان لابد لي

من ذلك لكي أجعله يدرك أنه لم يعد للحب مكان ولأنظر للخلف، أصعب ماشعرت به أن التفاصيل التي داريتها بجناحي جرحتني بقسوتها والآن الأشياء التي لفيتها بفؤادي خنقتني وأن الاهتمام الكبير الذي فرطت به جعلني أهمل نفسي فأصبحت بلا ابتهاج، أكاد أجزم أن المحبين يكرهون من يحبونهم ويداريهم وانطوائي هذا لم يكن عبثا أبدا وحبي لنفسي الآن لم يكن أنانية، أنا أصبحت هكذا لأكون أقوى مما يظنون.

فأنت ستظل ذكرى أحيا عليها لبقية الدهر يقسو القلب في القرب ويلين في البعد ويظل يضعف ويكابر رغم شدّة حبه.

ربما في الحلم السابع أو سابع المستحيلات، ربما في الدقيقة التسعين أو على قارعة طريق ذو اتّجاه واحد ذهاب لا إياب فيه، لربما نلتقي في تلك البقعة التي نرسمها نصب أعيننا حتى نصاب بمتلازمة التخيل أو التخيل أن نلتقي على ورقة ترتيب الأسماء تبقى لأبعد مسافة فتلتقي أسماءنا حبر على ورق.

سنلتقي في

آخر رصاصة لجندي أطلقها على عدوه وبعدها فقد حياته وهو يدافع عن وطنه

سنلتقي

على حافة طريق عابر لا رجعة فيه

سنلتقي

في آخر نطق شهادة لشخص فارق الحياة

سنلتقي

في أمنية مر عليها سنوات ولم تتحقق بعد

سنلتقي

في دعوة تائب تاب بعد كومة معاصي

سنلتقي

ك كومبارس لكاتب نضع بعضنا البعض مع البطل والآخرين مع المعجبين بالبطلة، سنلتقي في نسبة السكر التي نحبذها لقهوتنا، سنلتقي وإن كنا قد جمعنا اللقاء قبل أن نجتمع

سنلتقي

وإن كنا قد التقينا ولو في الجد السبعين من شجرة العائلة

سنلتقي في سطور وحروف كتاب

هوسي سرمدي

المهم أننا في الوثائق الشخصية على ذمة اللقاء مقيدون

أنت لا تعرف معنى أن يثبت لك أحدهم أنك كنت دائما الأقل وجودا والأقل في إحداث الفوارق وكأن العالم أجمع على فراقك دفعة واحدة لم يبقَ لك أحد، كان الجزء الأصعب في آلامك هو أنك لا تعرف حقا أين يقع هذا الألم في جسدك، هو فقط شعور مخزي تخذلان شعور أنك تائه وسط لاشيء، تقف وحيدا في فراغ لاتدري هل هو يتسع أم يضيق ويلهمك لعلّ الوجهة كانت خاطئة منذ البداية لم يكن هذا الطريق يستحق كل هذا العناء للوصول إلى نهايته، فالنهاية كانت واضحة المعالم لكنك عليك أن تفكر ألف مرة قبل تبدأ،

هل هذا الحب يستحق كل هذا العناء؟ كل شخص فينا لنفسه سجن الذي يناسبه نحن الذي سمح للحب بإمساكنا كرهائن ولكن من المؤسف ألا تعرف أين ترتمي وكل الأماكن تتطلب منك الوقوف.

مازال اسمك يسبق الأسماء الأخرى، مازالت رنة نطقه الجميلة تطربني، مازال صوتك يطرق مسامعي ومازال وجهك التعويذة الوحيدة التي أسرتني بين جدران وجدانك ومازالت أرتديها لأحتمي بها من سوء العالم، نعم مازالت أنت أماني ومأمني وملاذي مزيج تناعمنا يطبع بصمته في كل تفاصيلنا يرشدني لطريق النور وأتبعه وأرتوي منه ويحتويني، كان سماع صوتك في نهاية يوم شاق له وقع يشبهه صوت مذيع في نشرة الصباح لدولة محتلة معلنا أن للبلاد عادة آمنة حرة.
فيك غفراني وعصياني وظمأ عطشي وانهياراتي أنت هروبي من سجن الاعتقال أنت الانفراج بعد سنين من الحرمان وصوت يهمس بالجنون والأهات أنت النّعمة الشهية التي تفقدني صوابي وحنين سأظل أحكي عنه لعابرين وحلم يوقظ غفوة مشاعري من شتات صراعات انسجمت أرواحنا تحت ظل عرش الرحمن ومازلنا نجهل طريق الوصالي أن سطور الحب الهاربة من دفتر مذكراتي وانسياق شرودي وراء لحن يترجم اشتياقي
أمّا عن كلمة أحبك فلم يعد لي الحق في قولها لكني كذلك.

هو لا يزال على حاله وأنا أترقّب الجديد اليوم أيضا أمر بقربه كما مر العديد ألاحظ ثنايا وجهه ورغم تلك الابتسامة الجامدة أرى بوضوح أنه ليس على مايرام، ياترى ماذا يوجد وراء وحدته هذا ما أريد أهو حقا كما يدعي قلبه الحديد أم أن عينيه في شوق وفي انتظار غريب قادم من بعيد، هذا الرجل له سر أخفاه في بئر عميق، في عينيه تصب عدوة غريبة للقتال الأجل حرب أخرى، وثمة ركن للحرية الشهية الذي تجعل روحه هائمة بين سحب التمرد غير مبالي بما يدور حوله في روحه اختلس النجاة كما يسرق الغارق قشه لتبقيه حيا ولو لبضع ساعات ماتمنيت الانسجام خيوط قلبي سوى معك ظل عنيد يراود عقلي، يقتات من روحي على مهل طيفه شعره البليل ثوبه تناغم ألوانه كطائر البوتو، يلوح بيده بهوجائية وتخضع الكلمات مترجلة من شفتيه الغليظتين، بياضه يبعث السلام وعيونه ترتجف بالحب يصاحبها لمعة شقية تشبه البرق في سماء ما اعتادت هدوءا، عينه الخضراء تنذر في جسدي اقتراب عاصفة أو عاطفة كلما لمحت الأخضر يصب فيها حولي من أشياء له أحجية تشابكت خيوطها كطراز عتيق من يكون هذا أم مكتوب عليه الخلود أم له عمر مديد.

في إحدى الأمسيات وأنا أتجول قررت زيارة إحدى لبروفيلات، لم يكن إلا أنت ياعزيزي تفاجأت بأنك عدلت صورة بروفايلك مرفقا إياها بعبارة مبرطنة بدا لي الأمر غريب بعض الشيء، لم تكن تغيرها بين الفينة والأخرى كل ما أتذكره أنك كنت خالدا بصورة بروفايل من عهد بوتفليقوس، كنت أكتب تعليقا حتى حدثتني نفسي قائلة أتريدين تكرار الأمر بعضهم يقولون عني متلازمة شرقية لا أظهر عاطفتي أشح فيها كأنني أمنح من خلالها تذكرة عبور للجنة

أجفى تلك المشاعر حتى لا تقع قيمة نفسي أمامي في اللحظة التي حدثتني نفسي أخشيت أني متزمتة حد النخاع كل محاولة في دق بابك مجددا يهيأ لي بأنني سأدق مسمار في نعشي فأتراجع عوض

الخطوة

خطوتين هكذا يشدّني إليك الحنين وتشدني شرقيتي للتراجع وإن قلت هل للمنطق نصيب في تراجعي سأقول نعم بلى

أجل

فالمؤمن وإن لذع مرتين مثلي سيكتفي ولكن سرابك عزيزي يجعل مني مؤمنة ناقصة وألم اللذع وحده كفيل بأن أتراجع ألف ميل وخطوة

أود إخبارك بالكثير من الأشياء ولكن أخاف إن فعلت تتمادى، لكن لابأس سأغامر فمهما كانت النتيجة أثق أنك لا تجعلها سيئة للحد الذي يدمر علاقتنا لأنك أنت ليس غيرك في كل مرة تذهب وتعود سأستقبلك وإن طالت المدة لأنك أنت

سأغفر لك أفعالك التي تؤذيني فأنت لاتغفر أبسط الأخطاء، لأنك أنت بالذات لن أحمل عليك ذرة حقد، اذهب متى شئت وإن أردت العودة فكن واثقا أني دوما سأحتضنك بين ذراعي، وإن لم تعد سأفعل بقلبي وبالي وإن كنت يوما منهارا ولم .تجد لك سبيلا. ثق بأنني سأكون لك سندا، أعلم أنك لن تكون بحاجتي يوما ولكن إن حدث تذكر أنني لازلت موجودة فإن لم أكُن حاضرة فإن جزءا من ماضيك وربما سأبقى في ذاكرتك من يدري أعامل الجميع بالمثل إلا أنت أستثنيك

ضيق ذلك الحيز الذي وضعتني فيه ومخيفة تلك البقعة التي أسرتني فيها يا أسفي لم ألمح بك ذلك الإصرار الذي يدفعني لترك العالم لأجلك.

كان الحديث كاملا أنا وكل الكلام والغزل وخيالك ورائحة عطرك من بين الأسطر تفوح، وصوت الرياح يعلو والمنظر يتسلل دون صوت يهمس للأرض أنا عدت، ينساب الحنين من بين أناملي ليست جيدة بإمساك فيداي لم تعد تحكم إلا على يديك فسيسقط على الأرض وينبث بستان الصدر أجوف فلم أقل أنني لم أكن ناقصة كان ينقصني هواك وظلام يبحث عن أية نافذة تقطر الضياء فيحمل احتراقه ليراك، كان الحديث كاملا لكنّني كنت كاذبة حين أخبرت كل الجماد عنك أخبرت الطريق أن يحفظ خطواتك ويخبرني إن سمع من بعيد قدومك لألقاك أخبرت كل النوافذ ألا تعكس صورتك فصورتك في عيني حفرت فأخاف أن يراها تائهة فينسى وطنه ويعيق ذكراك أجبرت الظلام أن يعانق ظلك حتى لا تمشي وحدك حين يحتد الظلام، كان الحديث كاملا

لكن الأجزاء متفرقة أنا أحمل كل الكلام بين يداي كجثة هامدة وأنت بعيد كل البعد عن هذا المكان، كان الحديث كاملا أعترف بمصداقية ذلك الكذب

كان سيكون الحديث كاملا لو ملأت هذا الفراغ فهل أتيت فالحديث صعب رغم اكتماله حين يكلم المرء محبا على جدار.

ها أنا

عدت إليك مجددا إلى داخل قلبك بالضبط، لابد أن نكمل أهذا الحب أتذكر ماقلته يوما أنك في الليالي الباردة تشتاق لي وأنت تبدو باردا مثلها كلاكما يتجمع في صدره برد السنوات مادمت حيا في زاوية مامن ذاكرتي فلا معنى من تجاوزي لك أبدا كنت دائما تحب اكتشافي ربما هذا مادفعني للخوف والهرب فإن يتم اكتشافي يعني أن كل جدراني التي بنيتها بدافع الحماية ستهدم أمامي وأنني هنا سأكون وحدي فقط الخاسرة، يزداد قلقي كلما قررت العودة إليك إنك في كل مرة تغيب فيها يزداد عندي احتمال أن تصبح غريبا بالنسبة لي

وأنا أعيش الصعوبة التي أخافها صعوبة تقبلك بحانبي مرة أخرى

في دموع عيني يصب الندم ويختفي الشوق في المقل يرتسم الأنين برقوش الولع وتدغدغ حبات المطر بطون البراءة فتعلو قهقهة خجله، يتخلل صدى عذوبتها لحن قارص يشبه نشيج مريض يلد من أحشاء الألم، وجعه بعد ليالي من الكدر أو أبكم يتذوق حلاوة الحروف في شفتيه بعد سنوات من مرارة الغربة ويبقى سحر شفرات الحروف على الورق يهمس بتواطئ إليك وحدك

يامن تعني جسور الإلهام بداخلي يا مخذر الحب يسحب ببطىء من أيامي حاملا كفن ذكرناه في الجرم المشهود لا ضجيج هنا

أنا فقط والكتابة لك

والذكريات التي بقيت عالقة في جدار الأماني وديسمبر الذي بدأ الآن.

الفصل الخامس

كم مرة جئت بذنب الاشتياق مضرجة

كم مرة جئتك أحمل الحنين بين أكتافي كطير يحمل سجنه

سألتك بالله أن تأخذ قلبي أو أطلقني لموتي الشوق يخنقني

ورددت عطيتي في كل ليلة باردة ليس بذنبك

ذنبي أنني بحبك هائمة وفي الصباح أعود طيرا لا سماء بجعبتي وعلى وسادتك أنتظر ماهمني إن كنت معرضا أو حتى في حضوري فكرك غائب كل مايهمني أنني إذا ما حظيت بوجهك شمسا في صباح أغدو نهاري كالطفل الصغير العابر الطريق أبتسم

ذنب الاشتياق في الروح محفور ماهمه إن غاب المحب فرغم غيابه هو حاضر

مت شوقا تبا عند دجن الليل يقتلني مرهمي أنت

بوجودك يمر همي دواهي هم ودواء أنت لي

أنت كلي والكاف ظاء

أنت نسيمي ونون باء

أنت وتيني بسقوط الياء وبدل التاء طاء

أنت أبي والألف حاء أنني أتوق ولعت كلفا فإن عدت قل مرحبا أو مر حبا وحيني

أنني أكتب لك بعجائب لغتي فإن الكلام العتادي لم يجدِ نفعا

أتمنى أن أكون بقربك الآن رهينة بين ذراعيك أنجو بهما من حقد الدنيا وكأنها متعلقة وكأنها ساعتي الأخيرة، هي أمنية من بين عشرات الأمنيات التي أترقبها بالصبر الذي أتجلى بالقليل منه

ترى

كيف يكون الصباح بقربك، كيف أقاوم هذا الوجه وهو يضاهي نور الشمس بإشراقته، كيف سيغدو صوتك وأنت تردد صباح الخير يا جبني بشيء من الكسل، ابتسامتك تلك تدفعني إلى تقبيل خدك الأيسر فوق قطعة سكر تلك

إلهي كيف توفق بين ضحكته وحديثه كل منهما أكثر تأثيرا من الآخر، صورك تغزو هاتفي أشهدها وأغرق في تفاصيلها أفكر بمن التقط الصور ومن أخبرك بأنها الأجمل ومن اختار هذا المكان، هل سبق وأن أخبرك أحدهم أن وجهك يداعب القلب بشقاوة بكامل محاولات النسيان أذكرك وبكامل رغبتي في الموت أريد أن أحيا معك، تحسبني في سذاجة مراهقة أنا مرهقة في حبك أحببت الضياع في مملكة غريبة عني فلم يكون من اختيار عقلي بل شاركه الجريمة قلبي ورغم أنف المسافات والكواكب سافرحبك إلى جناح طير محروم.

كنت وكان وازير المشاعر ثالثتنا يترصد أفئدتنا من أبراجه المتداعية بالكاد تتفلت الحروف من مكانتها واهنة لا تقوى على حمل قوافل الوجد التائهة عبر المسافات تستلقيني مواجع الصدى أخرى وتحتاط على أديم الذاكرة تباريحه والقلب يأبى أن يتمالك أو تاره المزمومة، لا مناص من عزف سمفونيات الوجع الأخير من صوت الأعماق المخذولة، عزف صامت يرتل تجاعيد الحب المنعكسة على ماريا يتسرب على فروجاتها الوردية على لحن الطبيعة الآسر حين تثبت الروح مواجدها بلا ترجمام إلى الأثيرة الجامع فتستوعب كل ذرات الكون الفسيح الرسالة وينتظم الوجود في خيط وحيد كحبات عقد فريد تتلألأ واسطته كلما سرت في الأنفاس رعشات الحنين

غنيت لنجوم في ليالي قلبي كان فيها محكوما، غنيت شيئا من الكلام غير المفهوم وفي سهوة لذكراك تجمدت ناسية كل الحروف وكل النجوم كفريسة وقعت بين أنياب الحب في تعداد العشاق

أصبحت رهينة القبلات وللمسات كنت

يوما قرر رؤيته

كان ثمة شيء غريب يحدث، لم أكن أنصت لقلبي حينها ورغم أن أصوات القلق تتعالى في داخلي إلى أني فضلت المواجهة على الكتمان والانسحاب بعد كل ماحدث

لم تكن خسارتي لك تلك الليلة فقط أنا التي طالما خسرتك ألف مرة قبلها كانت ليالي إشارة من القدر فقداني لحبي ليس الحدث الأصعب في القصة، بل ذلك الخيط الضعيف الفاصل بيني وبين نفسي ومعرفتها للحقيقة في كل مرة وتكذيبها

رغم لازال يحجبني الألم ولازلت أقوم بترقيع وجعي في الغياب لماذا أصبح في الجو غبار؟ تضيع ملامح في كل شيء وأصبحت المدينة شاحبة غير تلك التي اعتدناها معا

أخذنا موعدا في مكان غير مألوف لي ، جلسنا في غرفة صغيرة لأول مرة ألقينا نظرة على حيطان تلك الغرفة دون أن يلقي أحدنا نظرة على الآخر، طلبنا بدل الشاي شيء من النسيان وطبق أساسي كثيرا من الكذب وضعنا قليلا من الثلج في كأس حبنا وكثيرا من التهذيب في كلماتنا ووضعنا جنوننا وهوسنا في جيوبنا وشوقنا في حقيبة، لبسنا البدلة التي لا ذكرى لها وعلقنا الماضي مع معاطفنا فمر الحب بمحاذاتنا دون أن يتعرف علينا

كانت في عيوننا لمعة لدمعة شقية تكاد أن تتأرجح بين الكبرياء والحيرة منذ تلك الليلة كان يجر رأسه وعينه لينظر إلي ويبتسم مطمئنا أني لا أزال معه يغمض ثم يعاود فتح عينه الثقيلتين ألمس خده يبتسم ثم يغمض وهكذا إلى أن استسلم بين ذراعيَ كم أريدك أن تكبر وألا تكبر في آن واحد فقط ابقَ بين ذراعي طويلا

ونظرت إليك نظرة الطفل المتعلق بألعابه بثيابه بأمّه بعابر ظنه أبدي ونطقت عيناي المولودة حديثا بالله عليك أتّخذه مني أشيائي أسترق مني أحلامي أتيتمني إنك الأثر الوحيد المثبت داخلي كديني لاتمحيه الطوائف ولا الكفار كوطني لا تبعده عني لا مسافات ولا أحزاب، أحبك كمثابر للنجاة أحبك كآخر قبله على حنين من هو يفارق الحياة أحبك كالحياة إن لم تكن نهايتنا سعيدة يكفي أن أثرها باق

ما تركتك يوما في سفري كنت أنت متاعي

ماودعتك في يوم كنت أنت جل أحلامي، كنت المقصد، كنت الملاذ، كنت كل حب في سيئاتي

كيف أشفى منك كيف أعود لرشدي يامن زرع في حقولي من هذيان لا تجيب فأنا كاذبة حين أطلب الدواء وأنا متربجة منتشية من لذة الداء فقبلني وعانقني لنعيد الكره مرة أخرى فأنا بدأت أشعر برشدي وأخاف الرشد أن يشفيني منك يا أجمل هلوساتي

وفي الساعة الصفر من الخامس عشر من ديسمبر أشرق مسام وجهي بأشعة عينيه

لم أتمكن من درس الكلمات بين شفتيه كان لسانه متثاقلا وفكره غائما في سحابه سواد كليل كان يريد أن يشفي سقم السؤال بدفئ الإجابة، كان يكفيه أن يقبل شعري فيدرك أن الانقسام المتعري في داخلي سيكون له رأي آخر ولكن مزال بعيدا كان خارج السراب لا يبوح بحقيقة مايدور

في خلده لم يتعمق في اللقاء الذي بعد عهد كأنه له قضية أخرى وأرض أخرى وحرب لا تعنيني كان بلقع من كل شهية تدعو للحياة ثمة فراغ موحش في جوفه ونقمات تنزل على قلبه كأنها من سجيل جهنم، كانت المرة الأولى التي ألمح في عيونه دموعا قديمة كأنها تروي فوضى شتات كقلب طير غادر مرفاه بادي عليه حنينه رغم أنه يحاول تخبئته

كان زهرة هالفتي تفعم بالحياة لكنه أصبح بوقتها زهرة ذابلة تنحني على أغصانها لتتفقد حياتها هكذا راودني نحوه

أما عني أنا كنت أدعي الثبات وكل شيء تحت قدم مهترئ بينما كان كلانا مضى محمل مكان إلى منتصف الطريق الذي التقينا فيه منتصف الشعور ومنتصف الحب اليوم نحن بكامل الشعور باللامبلاة بكامل الغربة والغرابة مثقلين بالماضي والذكريات ولا عزاء لقلوبنا المتعبة

سماء تلك الليلة كانت ملبدة بالغيوم

إنها تشبهنا تشبه انعدام وضوحنا في أي شيء غياب نجوم يشبه قلة كلامنا تخيل أن كل نجمة تظهر في السماء تكون حديثا جديدا بيننا يقضي على ملل الخريف وفراغه لك تخيل أيضا أن كل النجوم اليوم غائبة باستثناء نجمة واحدة معلقة في السماء وحديث واحد معلق بيننا لا أتذكر ماقاله حينها لأنني منذ ذلك الوقت وأنا أنسى نفسي ولكن هو الذكرى الوحيدة لكن قلبي قال لا تفارقني أنك نبضي ومال قيمتي دون نبضات وماقيمة جسدي دون هواء وماء، لا تيتمني إنك جنوني كيف سأسمي الحياة دون جنون وأنا الجثة المتحركة من دونك

آه عليه

قلبي ألمني وأنت تقول في تلك اللحظة تركتك لعدالة السماء هناك حساب عند الله سنرى رماني بذنب تيتمي

كان الأمر أشبه بأغنية جميلة ضاعت بين آلاف التسجيلات بينما إحساسها يسكنك

ليس ذنب المحبوب حين أحببته ولا ذنب القلب بما يحبه، ذنب الهوى حين يحمل شوقنا ويبقى بين الغيم ينكزه أفلت شوقنا ياغيم فيكفينا جور المسافة عن المحبوب فلا ترده، أفلته دعه يبلل جوفنا في الليالي الخاليات ما أبقيت جدولا سائرا ومابان من الغصن إلى أصفره أفلته لعل المطر يعيد الميت حيا ويعيد الذي نسينا مايذكره أفلته فالذنب ذنب الهوى لا ذنب من مسه بل كان ذنب المحب أنني كنت ذنبه

قلبي بشوق مذنب فاعفِني ياسيدي من القصاص من يعفيه

يتلو اسمك بعد البسملة ويتلو أحرفه كدعوة في السماء مدونه

توبة وصلاة وشكر واستسقاء عينيك فمن لهذه العاشقة سواك ليعطيها

مد يدك جيدا فالسماء بعيدة وقلبي يحتاج ملاكا لينجيه هل لي بقبلة على خدي الأيسر

فقد حق في البعد ومن سواك غيث ليسقيه

وأنا سأبقى على ذنبي مادامت أنفاسي باقية وسأطلب من الله بعد ألف ليلة أن يغفر لي حبك وإن لم يغفر فالنار لا تستحق أن تدخل إلا بأجمل معصية

مابال قمري في غيومه عالق من أطفأ النور العظيم وأظلمه

أخبرني يامعذبي كيف أزرع وجهك في كل وجوه البشر، أخبرني كيف أنتشل جذوري من أرضي وأتيك فإن وقف الزمان والمكان البعيد كالشجر من يعيد الحياة لتلك الصور،

من يعيد كل الذي كان مخلصا بعناق واحد ينفض عن جسدنا عناء السفر، من يعيد لنا كل مالا يباع ولا يدخر، من يطوي البعد عنا يعجل ذلك القدر أخبرني يامعذبي هل تبادلني شوقي وتزرعني في ذلك الصدر كخطيئة لا تغتفر

أخبرني ودلني من أين لك تلك القوة لتعرض عني ألم يكفِك ما رأيته من كدر، لا تكثر القول فقط قل اشتقت وسأتيك زاحفة أجر خلفي سيقانا من حجر من أنا من دونك من أنا إن لم تكن في أريت عودا يغني دون وتر، فما أظنك معذبي أنت قطعة مني حتى الجذع لا ينسى غصنه مهما أصابني من عطب ومن ضرر لكنه الحب يا محبي، لا يكون حبا إن لم يكن ممزوجا بلذة الخطر كلوحة لا تكتمل دون ألوانها كسماء ينقصها قمر املأ كأس الظمأ إنه العطش للعناق فكن أنت المطر هاك كل مابي من وجع وحب وضعف وقوة، هاك صدري خذ قصاصك وانتصر.

اليوم أنا مصابة بداء الحنين نوستالجيا هستيرية أفتقدك بشدة حتى لم أنتبه لوشاحي حين حلق وتركني هاربا برفقة عاطفة شتائية تخلى عنّي سريعا عند أول منعطف لكن لا بأس فعلى الأغلب إنه مصاب بداء الحنين أيضا، لعلّه رحل عن رقبتي باحثا عن رقبة الماضي السحيق، قدماي المخلصتان لازالتا تجراني إلى الطريق القديم المهترئ في نهاية كل يوم مخبأ سري حطام الماضي وقلبي المعلق لا يزال ينبض شوقا كلما اقتربت من النافذة، وعيني الممتلئة منك لا زالت تدمع كلما لا أجدك هناك أجلس حيث كنت تجلس أتلذذ بدفئ مجلسك باحتواء حضورك الخفي وأرتعش لقداسة طيفك الذي يسكن المكان فنخشع لأجلك أنا وقلبي الممزق.

وفي طريق العودة الضيق عند الطريق المعتاد الذي كان يبهر حواسك لايكف يا جبني على سؤالي عنك انتهت أكاذيبي فغيّرت الطريق وودعت الممر ربما مروري لتلك الطريق ربما مروري لتلك الطريق يطرق باب الماضي

ولا أريد أن تشاهد ذبولي

تفتقدك نفسي كثيرا ويفتقدك ليل ايلول

لاتنساني ياجبني احملني في ذاكرتك فقد تعبت من السقوط ربما هناك يوم قديم يمتد في كل الأيام

سابقا حدثني عن المستقبل رسمت صورة بالظل والنور لحياتنا معا قلت لي أنك سوف تعتني بي دائما علي طريقك لكن أولا كان عليك تحطم قلبي لو أنك مشتعل بحالي أعلم أنك بخير لا أحمل ذرة ضغينة لك رغم الطريقة التي أنهيتني بها أعرف أنك تبحث عن طريقك إن فقداني كان ضروري للعثور عليه لا أعتقد أننا التقينا في الوقت الخطأ كان هناك الكثير جدا من الأمور الطيبة بيننا كلانا منح لآخر شيئا يصعب تسميته كل من يحب

يؤسفني أنني تركت أشيائي مبعثرة في أحوالك تؤسفني أن تفزعك أشباحي في لياليك دامسة السوداء

كذكرى

يتمرد قلبي في انتظاره وبين شطي الحب يغرق أغطي في نفسي وأنطوي لعل ينكس اليقين مؤكدا فأعود أناجي محب الفؤاد دون أن يفهم أسباب العاشقين في حضرته وأشهد بأن فؤادي يجف ولعله وحين أقذف بالكذب على مسمعه ألمح صورتي عارية في بشاشة وجهه وبريئة عن افتراءات ثغره

تؤسفني أن أخبرك لن أعود ولكن حتما سنلتقي

فقلب الغريب أتى شائكا

وقلبك مر مرور الكرام

فسلاما عليك أينما كنت وسلام على قلبي الذي بقى معك

وبي شوق إلى عينيك جدا كشوق الزارعين إلى السحاب وشوق الراحلين بأرض قفر إلى ينبوع الماكثين بقطب أرض إلى شمس أطالت الغياب وشوق التائه الحيران طفلا إلى أهله بعض الصحاب

ياسليل الرؤى امتداد المستحيل عيناك

باب إلى مدائن ضائعة

مجرد أقمار تدور وتدور ولا تنطفئ أريج لا يهدأ حتى يثور وعوالم شاسعة تذكرة سفر إلى عطارد أرجوحة واسعة

تبا لكلماتي وقفت عاجزة أمام عينيك كلما همت في وصفها تقف على استحياء قائلا

ياخالق هاتين العينين سبحان تلك العيون لن يكفيها أبجدية ثامن وعشرون حرف توصفها عيناه أحن منه هو يقسو وهي تطلب الاعتذار أطلب المولى أن يرفقا بقلبي الهشيم

هل تعلم أن الكتابة عنك تبدو استئصالا للكلمات المتورمة في قلبي تبدو فانية محروقة وغليظة جدا لكني عاشقة لسردها وللضياع بين حروفها ورغم أني أبدو ثملة إلى أن عشقي لخمر وصفك لا يضاهي أي شيء في كل شيء.

ذات يوم كان صدرك بيتي وقلبك موطني، ذات يوم كان وجودك مطمئنا كالهدوء الذي يأتي بعد العاصفة كان صوتك مأمن قلبي ويداك دفئ روحي، خبأتني كالسكينة التي تلي الخوف، كالتعافي الذي يلي المرض كالرجوع بعد طول سفر، ذات يوم كانت أحرف اسمك تتبعثر نبضي وملامح وجهك تلملم بغيرتي، ذات يوم كنت أشيائي المقدسة من أين وكيف ومتى

اقتحم الخذلان قصور أحلامي

فسقطت على جسدي المنهمك جدران مملكتي

هل لك أن تجيب عن أسئلتي

لعلك تطفئ لهيب حرقتي، ذاكرتي باتت مستودعا لانكساري، وقلبي أصبح منبعا للوجع،

كانت الوحدة تشق طريقا للكتمان تسكن بجواري ذاكرتي حاملة عدادا لابأس من سنوات الذعر، تخطفني كلماتي إليك لأكتب عنك على نهج يرمي بنا أنا وحروفي لمفترق الطرق، فلا أسكن أرض الهدوء وأظل عالقة بين ضجيج وجودك بعقلي لقد وصلت إلى أوج الاختناق لألتقط أنفاسي المقيدة بسلاسل عبرات الذكريات فتدب الروح لقلبي شيئا فشيئا، شيء أشبه بتخذير جسد مريض أوشك على الموت فلتأتِ ساعة الصفر التي تنتهي عندها الأقدار البلهاء ونلتقي بنفحات الأشواق.

لاشيء يذكر لأن كل الذي مضى بات كالجثة المتعفنة لاشيئ هنا يعيدني إليك إلا رائحة الخيبة والخذلان.

لا تهرب مني ولا تأتي إلي لكنه يخيفني وأنا دائمة الخوف والهرب منه فتراني أدور حول نفسي لأعود للهرب منه إلا إليه وتسبقني قبل العودة وكل مادفعني لمعانقة يديه، ألعن عجزي أمامه، ألعن ذاكرتي حينما تحدثني عنه، وألعن ضعفي الذي يجرني رغما عني إليه
كان حلما دافئا في ليلة شتاء باردة، اقتحم هذا القلب المتمرد أيقظه من سباته العميق هز نبض الخائف المتلبد وما أن طلعت عليه شمس الصباح اضمحل مع رحيلك وتبدد.
كنا نشرب الأغنيات سويا نطوي النهار ونسقي الليل من صمتنا، كنا نطيل الحديث تارة ونكمل شطرها العيون كان لقاء ضعيف المعنى لولا متاهة نسجها صخب شوقنا نضيع فيها الوقت والمكان معا نحن أسطورتان مابين هنا وهناك فوق السماء وتحتها، أخبرني ياحبيبي هل يمكننا أن نعيد ذلك الدهر غدا، كنت عابرة في حياتك فتلاشى هذا العبور لكنني تركت في ذاكرتك ذكرى لا تمحى مهما مرت السنوات سأبقى الأفضل لديك وإن لم تصدقني اسأل إحساسك المغرور أما عن ذلك الذي ظننته الحكاية والكتاب ماكان إلا صفحة سوداء تمزقت مع هبوب أول نسائم الخذلان.

الفصل السادس

أراسل طيفك بين ثنايا الأرواح هنا جميعم شياطين ووحدك الملاك الحارس تأتي من السماء كإلهام كمغفرة لي، فأخط لك بعض الحروف لعلها تفي ما بداخلي دون جدوى فبنيت لك مدينة من العشق وجعلت لك عمادها أنت وهدفها سلب قلبك واحتلاله هذا ليس بعمل سيء فأنا أحبك وهذه حرب بيضاء تقام للسلام، ألملم قمح فؤادي براحتي أطعمه لك وأقيم قانون يمنع إنجاب الفتيات لايشبهونك وأزرع لك خضار الكون كعينيك وألقي عليك مسمى ملاك الحب الأعظم

مكان إيماني بعمق الكون واتّساعه باطنا حتى رأيت كون عينيك جمدت إلهي البديع سبحانه كيف وضع بك أجمل ماخلق وفعل كيف يتمنى الإنسان أن يدفن في عمق عيونك ويموت بنظرة منك، عيونك خلائق سحابة تسحب دوما في تراث سرمد ذكراه أقبية خاوية بالمساكن وتسكن فيها وحدك تجشمت أعاصير حبي لك وبلوعه شبابي أنتظرك قربي تستهوى روحي في هوى الضياع واستهوى ضياعي في هواك، تكبل الإحساس بك هناك حبيب يراه القلب حبيبا ولو كان أشد أعداء الزمان، زيّنت قتامي نجما شاحبا وشيدت فيها زغابيب تشهد بها السنوات هزيم ضج على مسامعي بالفصحى أتمم جرم صبه الليل في صدري يزحزح لب قلبي كأول فزعة فرعت بكأسك المر عليه وتجرعته دون تنكيل لولاك لجفى حرفي عن لساني وربما دمي في أوصالي تاركة نفسك لك عسى أن تجد الحب يوما.

كنت طوق نجاتي آخر رصاصة قد مال بها مخزن سلاحي ملاكي الحارس أمي الثانية وخط الدفاع الأول مرهمي أكسيز الشفاء بضعة من الدقائق مرت كأنها أعوام عدة

اعتصرني الألم خلالها جدا، كنت تبتعد عني مئات كلوميترات وثانيتين وشهيق تلك الدقائق وضعتني على منضدة الموت كعجوز قاربت التسعين من عمرها، لا أحد يهتم بآلامه تلك الدقائق جعلتني شمطاء لفترة وجيزة معدتي ألمتني كثيرا لكن شعور مقاومة الألم دونك أشد إيلاما وقسوة كان شديدا ماذا عساي أن أفعل.

بينما كنت تزرع الطمأنينة في عضلة صدري الأيسر تملأ بساتين الورود بينما كنت شمعة في ضعفي وقلة حيلتي ماذا عساي أن أفعل به الآن كل المواد في غيابك تفقد خواصها فالماء لا تطفئ فمنذ سنوات أقف تحت المطر وقلبي يحترق

بين شوق لا يحتمل وعهد انقضى بين ولع يخدش الكبرياء وعزة نفس تهدم الحب أنا هنا أخشى انقلاب الوصل وتسرب لهفة كتسرب قطرات دم لجنين يتكون للتو في رحم أمّه أي جبال جهنمية حقيقية تشدني إلى وطنك، وطنك الذي بنيت فيه أسوارا من الشجاعة لأتسلق إليك دون أن يراني أحد ودون أن ينكشف سري، بت أختبئ خلف ذراعيك أبتلع الحسرة والمرارة والصمت في فمي وحدي وشبحك بين أعيني أهي الوجوه كلها تشبهك أم أنها لفرط الولع في كل وجه عابر أراك.

ماذا يفعل المرء عندما يقع في حب غيمة، في حب نجمة ظهرت ليلتين متتاليتين واختفت بعد ذلك للأبد،

ماذا يفعل المرء عندما يحب حلما عابرا راوده ذات يوم ولم يستطع نسيانه،

عندما يحب وردة في بستان عدوه، وماذا يفعل المرء الواقع في حب الماضي، وماذا يفعل المرء عندما يقع في حبك يا هذا .

لم تكن المشكلة تكمن حقا في الحب أو المحب لطالما كانت المشكلة في حصولك على ذكريات طويلة لست متأكدا من صدقها

لا يمكنك أن تفهم حتى الفهم ماهي حقيقة الأمر كله أو أن تفهم جزئيا ماهو مداره، حتى نفسي لا أفهمها إني أرتعش فحسب تحت وطأة هجوم أعذب نفسي لدرجة الجنون والهوس لكن ماهو أو ما الذي نريده في المدى البعيد هذا، مالا أعرفه كل مايتطلبه الأمر في هذا الحين هو السكوت والظلام والزحف إلى مكان للاختباء أعرف هذا من يدلني وماذا أفعل مد إلي كفك لعلّي أنجو من سلطة القدر، مد إلي وعلمني كيف أواسي نفسي من الشجن ، ساعدني بألا يكون لي نصيب من الندم، لا سلطة تعلو على سلطة الحب فضمني إلى صدرك ليندمل الجرح الذي سكن الفؤاد في بعدك، في وطني لا يكون للمرء حق في تعب ورغم ذلك تعلن عيوني حدودها ويعلن قلبي نصب كوخ صغير يضمك معي خلسة عند عقرب الزمن.

بنيت له قصرا وخشيت ألا يليق بسموه فغرس فيه سيفا قاتلا، ويحه لا يدرك فعلة يداه تمنيت رأفة منه حينما سال دمه ولم ترَه عيناه أصاب عيناه غشاوة أم أن الجرح أعمى هواه أم أنه لم يكن من سكناه وقد عشت الوهم أرعاه .

اخترت مصافحة النسيان بمحض إرادتي فما عادت بذور الحب تنمو ولا عادت للأشواق تأويل، أرمي بنفسي في أحضان الحقيقة أفضل من أن أكون ذليلة منذ أن عرفتك اعترتني مشاعري لا أخشى الموت مقابل دقيقة لم يكن في حسباني الوقت بل كانت هدنة عمياء تحرق المرء نحو الاستمتاع فيها ، لماذا كل تلك الأسلحة البغيضة؟ لماذا أصبحت كلمة أحبك تجلب العار والفضيحة ؟

سلام عليه سلام المتيمة التي لن تعشق رجلا سواك، وسلام عليه سلام وفاء وأعلم أنني لم أخمد جواه

بلغوه سلامي إن توسدت الثرى أن تدوس عظامي قدماه فأمت قبل الموت بفراقه ولم يأتِني طيفه ولا مرآه،

ماكنت يوما للموت أبها فروحي مخلدة في سماه ورجوت من ربي جنانه فلعلي في ديار الخلد ألقاه

أحن إليك كطير سجين فما الغيم لولاك إلا ظلام وما الأرض ممطورة غير طين.

كنت أحبك دوما كما لو أن غدا لن يأتي أبدا، كما لو أن رصيد العمر معك سينفذ بين اللحظة والأخرى كما لو أن عيناي لن تقع عليك ولو لوهلة ولو لرمشة جفن لذلك أحببتك واعتنيت بكل لحظة كما لوأنك آخر أحبتي على وجه الأرض، كأنما أدفع عني وجسي من الندم على همسة شوق لم أقلها على دعوة خير لم ترفع فوق أكف الغيب لك

معك لم يكن الفراق خوفي ولا الخيانة خوفي ولا حتى الوحدة خوفي، معك خشيت طويلا شبح مجهول أتي لا أدريه ولا تدريه مجهول

قد نلقي تعاويذ الوجع ما يصلنا على اسياخ حرقة أبدية لن تنطفئ بقلبي مالم أعش معك اليوم ما أتمنى أن نحيا مستقبلا سويا فهل ستكبر الفواتير بقلبك وتجحف على صدرك لو طلبت منك تحبني كما لو أنني سأموت غدا كما لو أنك تراني للمرة الأخيرة وإذا جئتك مكسورة فضمك. لي واجب أنا في هواك أخالف الإعراب.

مازال التحديق في عينيك يشبه متعة إحصاء النجوم في ليلة صحراوية، ولا يزال اسمك الوحيد الممنوع من الصرف في حياتي، لا تزال في خاطري نهرا نهرا ولهفة وجرحا جرحا وأذكر جيدا رائحة كفه خشب الأنبوس والبهارات الغربية الغامضة تفوح في ليل السفن المبحرة إلى المجهول وعيناك فتنه خمر وشفتيك كأس احتسيت القليل منه فذهب عقلي وانتفضت حواسي فماذا لو تجرعت الكأس كاملا واستنشقته أنفاسي ولم تكن حنجرتي مغارة جليد لقلت لك شيئا عذبا يشبه كلمة أحبك، وإني أحبك حبا يسمعه الأصم ويبصره الكفيف ويزهر الزهر في الخريف ويتراقص بأنغامه العاجزة.

انسابت الكلمات بتلقاء نفسها بروح انسجام متدفق وبآخر ليلة من ديسمبر حيث توقف العالم للحظات ولم يتوقف قلمي، ومنذ كتبت أول حرف من اسمك على ورقة بيضاء يعيدني الشعور لأول حديث بيننا أو نظرة، وأول ليلة يتدفق الشغف داخلي الشعور ذاته تفاصيل وبرغم غيابك فالكلمات لم تفقد بريقها بعد، ومن بين كل الكلمات

التي أحملها في جوفي وكل التنهيدات وكل الأفكار المؤرقة أنا أحيك والياء باء.

كنت دائما أتمنى أن أكون بجانبك ولكن ما الذي لم أفعله، فلقد فعلت المستحيل ودخلت جميع الحروب وهزمت كل الظروف وحققت كل الانتصارات، دافعت عنك بكل ما أملك من أسلحة وتصديت لكل الضربات وبرغم كل الطّعنات والجروح التي سالت مني يقول ماذا فعلتِ من أجلي أيبقى شيء لم أفعله من قبل؟ أخبرني ماذا يبقى كي أفعله كل وسائلي للحفاظ عليك تعطب الآخرين وكل الطرق التي أسلكها للعثور عليك تجعلني أفتقدك بقلب يعرج، أركض نحوك حينما سألوني عن هذا قلت إنها تشوهات خلقية ولم أقل لأحد بأن هناك حجر كبير سقط على قلبي.
كنت الطرف الوحيد في علاقتنا أكثر عطاء كنت وحدي أشتاق وأعاتب وأخاف الرحيل وكان قلبي وحيدا حزينا في رحلة عشق يدفع ثمن صدق مشاعره نحوك.
لو أخبرتك كم من معركة خضت وكم من ألم حاربت لو حدثتك على كل هزيمة وعن كل صدمة تعرض لها قلبي، لو أحصيت عن ليالي التي لم أشعر فيها بطعم النوم وكمية الدموع التي أذرفتها في صمت لرويت لك ماحل بي عند كل حلم كان يسرق مني وعند كل شعور كان ينتهي داخلي لما صدقت أني حقا مازلت صامدة بقوة في وجه الحياة أقابلها بابتسامة نصر ممزوجة بخسارة كانت أولها نسختي القديمة أفتقد وجهها .
وحين تركتك كطفل شريد كلما اشتدت علي الحياة أدس يدي في جيب ذاكرتي وأخرج منها إحدى ضحكاتك لأمسح بها ثغري.

اعتذرت منك كثيرا فيما مضى مرة واثنان وثلاث مرات عديدة، فعلتها كثيرا بالقدر الذي لايمكنني تذكر كم مرة فمت وقتها بذلك، لم أكن أهتم بمن هو المخطئ بتاتا، كنت أسيرة خوفي المفرط على قلبك من أن يكسر وترعبني فكرة فقداني لك فأركض مسرعة الاعتذار حتى وإن لم أكن مخطئة تجاهلت قلبي بشكل مؤلم واستعدت التفكير في خاطري بإهمال جارح لكنني بعد أن تأذت نفسي كثيرا لم يعد بمقدوري جبر الخواطر أكثر من هذا الحد ولم يعد بإمكاني التشبث بمن لايهمه وجعي وغصاتي و تنهداتي، تعبت من كوني في الجهة التي يجب أن تعتذر دائما وكأنني أملك روحا لا تنكسر هي الأخرى ولا أملك مشاعر مثلك تماما تعبت من كوني الفتاة التي تجبر ولا تجبر..

ينتابني شعور وحزن باذخ أود البقاء والمغادرة في آن واحد رغبة عارمة في الموت والبقاء على قيد الحياة أنسى وأتذكر كل شيء، أتأرجح أنا بين مشاعر متناقضة وعقل ناضج إنها كارثة عظيمة تعم داخلي تشعرني أن الانسحاب لا يليق بي والاستمرار أيضا لا يناسبني، أيام مترادفة ورتيبة ولاشيء جديد، حجم غرابتي في هذه الحياة يتعالى وما أبشع أن تعيش بين المد والجزر في وطن مكتظ بالبشر والهرج، لا شك أن هذا الشعور سيبعثرني وينثرني كما شاء وأراد حتى ينتهي بي المطاف أن أعلق حبل مشنقة نهاية.

مرت خمسة أشهر وأربع وعشرون ساعة ودقيقتان على سماعي أنك تقدمت لخطبة فتاة أحلامك يومها شعرت بفجوة كبيرة بداخلي كان الأمر أشبه من طبيعتي

لم تدمع عيناي قط لكن جمدتني تلك اللحظة شبحت ملامحي

اختفت خيوط الحب تلاشت لحظات الود

طمست كل ذكريات في ثانية دون تفكير في تلك الأرجاء

انصرفت من أمامي ذكريات وتفاصيل وأعوام التي سلبت مني نصف عمري

سألت نفسي ماهو الشيء الذي جعلني أركض كل هذه المسافة حافية خالية الفواض حتى أفقد نفسي أصعب جزء مني في تلك الحرب التي أقمتها لأجله بينما هو كانت له حرب أخرى يريد الانتصار بها لكنه فعل وانتصرت وها أنا خرجت من هذه الحرب مهزومة معطوبة.

في قلب تلك اللحظة أنظر إليك من بعيد جدا وأحلق كسرب حمام عاليا فوق وأتحسس من بعيد وحشة شعور بعدم الأمان، أنظر هذه المرة لن أعايرك بسوء الاختيار بل أنظر بعين الكرامة التي تفصلني عنك لسنوات أصابتني حالة جمود وفكرة عدم الاحتواء بالكامل كانت كالصغير يحبو على الأرض زرعت أشواك الاستهتار وتراودني حكايتنا وتمر كشريط يهبط ويعلو كمنطاد حر يهوى السماء هل تعلم امتناني كثيرا نادمة على تسللي لأول مرة أشعر بعدم الألفة للمكان الذي اعتدت اللجوء إليه

لم أعفُ لو لوهلة تلك الليلة كنت غارقة بانهيار مفزع لم أصرخ ولم يشعر أحد بي راقبت عقارب الساعة ببرودة وجمود تامين تنهمر دموع قلبي بدل عيني لم يكن هذا جدير بإطفاء النيران داخلي، كنت أبتسم بطريقة سوداوية أحدق في شاشة الهاتف باردة وفي ساعة تارة أخرى والمكان. مليئ برماد احتراق روحي مسحت دموع التي كانت على خدي ثم أصمت قليلا لأعود وأهجع ببكاء ثانية

قلبي الواسع الذي ضمه ذاك الفؤاد الذي بقدرته أن يضم الأرض كلها لوشاء

لم يكن قادرا على احتواء تلك الصدمة، استلقيت في فراشي وأنا بكامل الهدوء أنتظر إلى أن أستسلم لنومي لأصحو في الصباح فأجد أن كل ماحدث هذه الليلة مجرد كابوس مرعب، كانت روحي تأبى أن تخسر وقتها الأخير في الحياة ذلك القلب كان على وشك

التوقف، نبضاته ببطئ جدا والمكان حولي مرعب الهدوء لا يوجد سوى أنفاسي وصوت دقات الساعة بعدي الوقت متتصف الليل أو منتصف الحزن بالنسبة لي أكاد أختنق أريد إرسال خفاش روحي ليطلق نحيبه في الأفق ولكن ما الجدوى

قلت أنني جننت بعد تلك الليلة

قلت أنني فقدت عقلي ولكن لم يفكر أحد في أن يعانقني لأبكي أن تنطفئ نيران قلبي بعد تلك اللحظة مات شغفي وفقدت آخر حلم لي، اندثرت روحي

ليلة ظلماء حالكة في مقصلة الود بين قلبينا كانت تحمل من السواد بمقدار حلم باهت لعجوز عاصي قد نام سكرانا ضيقا يلاحق أطفال قلبي الجياع كنت أنت أباهم يلجؤون إلى حضنك إلى حضني بلهفة متيم كلما ارتعشوا خوفا من الفراق هذا الشبح اللعين كان يهلوس في مسامع صدري منذ بداية عهد ظلمتنا حتى مطلع الفجر من جديد

أتعلم ماذا

يبدو أن ضياع نورك بقلبي بدأ يخمد بدأ يضمحل ويختفي تدريجيا مع بزوغ صباح ساكن أخذ رونقه من برود قلبك ياشقي قد أصابني شيء من هذا البرود وقتها زال ألم توديعك لقد اعتدت عليه حقا بدأت أستهلك ذكرياتك تدريجيا ساردا في تفاصيل الفراق ذلك المشهد الدرامي الممل من ابتسامتي المتعجرفة الساخرة من كل مايحدث ادعيت عدم اللامبلاة صرت ألوح لك ببرودة أوصالي المرهقة وكأننا لم نلتقِ سابقا، كأننا نراهن من يستطيع تحمل حنينه أكثر من سيكابر حد الهلاك لكن ياصغيري لقد فاتك حقا أني لم أعد أبالي

أتعلم ماذا

ذلك العطف وكل التفاصيل التي منحتك إياها لقد تجمدت في عروقي الآن لذلك لملم جبروت حبك المزيف المبعثر في كياني عن حقول قلبي الجذباء إياك أن يغلبك الندم وتأتي للاعتذار

إياك أن تعود

كل الكلمات المجنونة تنهض في منتصف الأشياء المسعورة محمولة على أيادي أشباح مسكونة تستجوبني الأسئلة

فأتخبط بين غابات الدهشة ويستوطنني الندم في عز الانفعال أعود إلى حالي في غمرة شك فأنا لا أقوى على تحرر الماضي ونسجه في خيوط مع الواقع قد تكون جل أمنياتي شمس تشرق على حياتي أو تنمو أزهاري في أرض الكرامة أحيانا يغيب الشك ويبقى اليقين معلقا في ساعة من الحماقة ربما تلسعني كوابيس ويحتل آخر ما تبقى من النهار، رماني التفكير إلى أعتاب ماضي ظننت إني أتلفت أوراقه وأحرقت ذكرياته، تذكرت أيام قلبي كان فيها كأيام شباط وروحي غلفها الحنين لهم كان ثمة شيء شخص واقف في بداية الدرب أسميته الأحلام في سجل النسيان أحصيت عدد المتيمون على قيد الحياة والكاذبون، وجدت أن حياتي أصبحت بها قلة قليلة من الناجين من اختباراتها، وأنهم الأوحد والأصدق ولم أن منهم أموات إلا أنهم أحياء بقلبي يشتهون الموت.

أعلم أنه سيأتي ستجثو أسفل قدمي تطلب المغفرة، ستبكي بكاء كاذبا، ستخبرني كيف أنك لم تحب مثلي كيف أنك تراني في كل الوجوه، ستقول لي بأنني وطنك والوطن لا يستبدل ستخلق آلاف الحجج جميعها أعرفها وجميعها أعرفها كاذبة ستصور لي نفسك تعيسا بل أتعس رجل في العالم وأن سعادتك بين جفوني عالقة، أعلم أنك ستأتي في وقت متأخر أنا نجحت بإخراجك من قلبي وأنت علمت أن لا أحد سيحبك مثلي لكن أسفي عليك.

ألأنك شهواني جدا زير نساء؟ ألأنك فارغ من الداخل لا تعرف من الحياة إلا تاء التأنيث منها؟ إنك تجهل معنى أن تكون ظالما عند الله، أن تكون كاسر القلوب خادش الخواطر

يا أسفي على مجتمعك الذي علمك أن الرجولة نساء على يمينك وشمالك

أسفي على حياتك الفارغة المليئة بالإيثام

عقيم كان حبنا لم يولد منه جنينا أو مجنونا لم نولد حتى أنا وأنت،

في قلبي أسرار تعيش لم تتجرأ لالخروج ولم أجرأ يوما على تجاوزها، تمغص أيامي فهي بمثابة ذاكرة لشعوري بالندم، هذا القلب الذي يسكن تحت سماء الحب الأول وشهقة الاعتراف الأولى تعيش فيه وجع الكابوس المؤلم بالخذلان في ليل تتمدد إليه أصابع انطفأت فيه شعلة الشعور حتى وإن هبت عواطف الحب لتداعبه لن يرضخ لها، هو يوم شتوي بارد يخيم عليه ضباب الشوق فلا نمطر إلا الفراق، وبعد لغز لايفك شفرته سوى

صدق الشعور اشتهيت لأعود أسير إلى طرف أصابعي كالسابق، أشتهي أن أسكن في أضلعك ويتهاتف صوتك على مناداتي أخبرك ماذا حدث في غيابك لسنوات واحتمال الوجع وحدي لست بقدر عالي من الغفران أمتنع هذه الصفة الإنسانية وفي كل مرة أطلقت الحنين لها كنت تحرقها وتطفئها ، لكن أشعر أن كل ماولد في غيابك سيزول بوجودك ولا أدري إذا كان حقيقيا أولا لكن أرجو أن تكتمل من حيث توقفت فقد تغيرت ولم أعد أنا هي ولا هي أنا ولا يجدر ذكر شيئ قد مضى، لم يوفقنا الزمن لسنوات بل أوقف مشاعرنا ورمى بنا إلى طريق يسلكه المرء وحده ولا يجوز الاثنين خطى أقدامهم على أعتابه معا تحولت مشاعري للعطف والإشفاق لحد الجنون مضغت الكتاب بكل فصوله ورغم كل الكتب في حياتي كان كتابك الأفر بالمعاني بل كان أقصى في دروسه.

مرت الأيام كسراب دون التفات ولو قليلا، مضى أربعون شهر ضياع وحدة كنت أجمع شتات نفسي في ضواحي كل يوم حملني الدهر مسرعا لمكان أبيت الجلوس فيه وعزمت خروجا ولكن كسرت حتى بت أرضا تزاحمني ذكرياتي معك وعينيك على كل جدار تدعوني للنظر لها صرت كمجنونة لا يفقه عقلها ، تخشى تقبيلك خوفا من أن تكون سرابا ماعاد لحبي من أعمدة تشفع لذنبك عني الذي التهمته دفعة واحدة ماعاد ينسيني مرارة العذاب أصبح القلب سجين الكبرياء والكرامة تثمله الحقيقة اوع روحي

البلهاء التي طوقتها بين كفي الشّقاء وأطهر جسدي من خطيئة يديك في الأمسية المظلمة تلك، لقد أصبح النور يعريني وبات لون التوت على شفتي لامعا وثابتا حتى قطرات المطر لا تزيله.

اليوم أكتب عهدا جديدا مع نفسي سأحرص على التشبث وبأعمق درجات الإيمان سأنهض باليوم أولد من الحطام الوجع ومن الغرق طويل في بحور الاستهتار

أوفي بوعد وعدته يوما بأن أنجب من رحم المخاطرة انتصار على خونة الوعود سأطارد أحلامي تتمرد على الزمن سأتقبل بأن موج الأقدار قد يقذفنا إلى وطن لا يشبهنا أوحبيب ليس جدير بالحب هذا ليس افتخارا لأوقعهم في شباك تساؤلات وحيرة، واقف أمامهم يقظة الروح وأنظر من خلف الستار أعينهم وأفك شفرات الكذب والتلون التي لم ألحظها يوما من فرط طيبتي.

هكذا ودون سابق إنذار انفصلت القلوب وتبخرت الوعود، انتفضت المواجد وصرخ الخذلان مليئ الحناجر، لم يبقَ معي في غياب ليل إلا أنا والقليل منك، ومن ذهب معك قلبي والكثير منك في غياب الوسن يحضر الألم ويعزف ترانيمه وتختلط مع الدمع لتنسج مشهدا تراجيديا من نوع آخر معزوفة إعدام روايتنا تروي حكاية روتينية على ساحة الهيام، كيف لقلب حي أن يحتضر، كيف لمشاعر جياشة أن تعلق على مشانق الهجران

حكاية اعتادها الدهر منذ الأزل ولازال يصفق بحرارة تمثيليات الهواة أمثلنا من قامروا على الهوى وسقطوا في الهاوية بقلوبهم التي أهلكها الهوس وخرت مستسلمة على سطور الأحزان وبراثينها ترثى نفسها في مراسم معبقة برائحة الحبر ولون الورق تترجم وعثاء الفراق بلا هوادة وتستريح على قارعة الغفوة لعلها تستنشق بعض الأحلام الساذجة لتحيا كقتيل يوم ولادته، أخلق ليموت فيه أم حظه عاثر لدرجة أنه تعثر بملك الموت وهو يطفئ شمعة شبابه، ونحن افترقنا في يوم لقائنا بعد حولين ويزيد واحد من الأمنيات العاقرة هكذا كان إعدامي في يوم ولادتي ألأني حين أحببتك ولدت وهاهي الروح تبتلع الحلقوم.

عقدت أنفاسي جرعة واحدة لأظل حبيسة قفصي، دفنت بمعطفي عهد عقدته يدي في ليلة تجسم خيالي خط قلمي في ورق الخردل فأفشى حسي فقذفت مكبل لأتحرّر كانت كلمات لاتمت للفصحى بصلة دونتها خصيصا له، إحساس عذري انحبس بغير أوانه وقت مؤد لا يباح فيه شيء، تارة تمسك زمان أمرك وصحوة الشعور الدفين بين قبضة يديك بإحكام فيهوى وأنهار معه، أتذكر جيدا كنت أشطب وأمزق ما أكتبه ارتياع أن يخدش حرف جرحه لوح الثلج اندثر في أوصالي جازم معه قوتي الزنبق بين أطرافي خفق والحب في كفوفي انبثق متى نما وكيف أذنت له، ياليتنا تعثرنا في بقعة سقطت أحجية بصيرتها لتصحو بها ولأنتبه باقترافي حماقة أخرى، ليته لم يفق عقلي وظليت أظفر صدقا

اعتلت التعيسة بكب أوجه الاعتراف وسرعان ما استجمعت شجاعتي المزيفة لتصب عليه القسوة وتمقت إحساسه بي بجدارة تلاعبت به حتى تسنى له الكره وهذا ما أردته.

ماكان يغتصب أفكاري في الماضي هاهو اليوم يوارى الثرى وتذهب ملامحه ويشيع جثمانه لمثواه الأخير، وها أنا أشيع لك جنازة دون حاضرين في أرض قفر جرداء أسقيتها بكل نظرة نظرتها لها في كل دقيقة وساعة واستحقرتك لداناءتك ورذالتك، تغلبت على شبحك لأضيء وأزهر من جديد،

ثلج الهوس السرمدي أخذ ينصهر أمام عيني رويدا رويدا

فالعزاء لك ياسيّدي.

خـــــــاتمة

أكتب وأمسح ثم تتحرك بين شفتاي كلمة فأكتبها وأمسحها هذا حال امرأة مثلي تزاحمها الحروف لتعري شيئا ما بداخلها، شيء غني عن ذكره لأحد فهو يسكن بين أهداب عينايا شفافة، عندما أمسك بيدي القلم أستطيع أن أصل إلى أعمق حفرة سقطت بها يوما وأقف عند كل عبارة أرتجف وجعا من حدتها وعند كل نبرة أجبرتني على هضم حروفي عمدا وابتلاع دموعي قبل ولادتها في ذاكرتي، ليس ذكر المواقف فحسب هي ماترعبني عندما أتحرش بها قصدا بل حالة من التجمد أصابت كل مشهد حي وكأني توقفت لأعود بعد سنوات أكمل تصور ما أوشك على الموت تلبس روحي الضجر ويرسم على ملامح وجهي اللامبالاة الكاذبة والكره والهوس في آن واحد، ومابينهم أحوم بلا وجهة وظالة طريق أرضي علمتني الكتابة ألا أكتب الأبجدية عنك ولا أغامر بقتل الصمت على الورق، علمتني كيف أتواجه أمام عيونك دون خجل وكيف أعقد هدنة مع أوجاعي بالصبر، تعلمت النسيان عمدا لعهدي مع نفسي عندما شممت رائحتك تقترب مني أشق طريقا مليء بأشواك حافية الأصل وآخر ماتعلّمت أنك كنت أنت المعلم.

* * *

تم بحول الله وقوته

للنشر والتوزيع والطباعة واقتناء الكتب يرجى التواصل معنا:

مقر الدار: Rue Ben flis- impasse kalenge- batna

المثقف
للنشر والتوزيع

الموقع الإلكتروني: www.elmmothakef.com

☎ هاتف / فاكس 79 47 80 033 / 79 90 21 0773

واتساب/86 73 49 0675